

القاضي الفاضل  
عبد الرحيم البيساني

هادية راتب الدجاني

رسالة قدمت الى الدائرة العربية في الجامعة الأميركية

في بيروت للحصول على درجة "استاذ علوم"

بيروت  
الجامعة الأميركية  
تشرين الأول ١٩٦١

تمهيد  
-----

١- مقدمة

عاصر فترة ملأى بالاضطرابات السياسية - وتمتمة بالحرب  
الطاحنة بين العرب والفرنج - وبالانقلابات الجذرية الهامة في تاريخ  
المسلمين . عاشها وأسهم فيها وأحيائها الى حد بعيد . ذلك هو القاضي الفاضل ،  
وزير صلاح الدين الأيوبي الذي شاهد اندثار الخلافة الفاطمية في مصر ، وتوحد مصر  
والشام ، واستعادة البلاد المقدسة من أيدي الفرنج بعد احتلالهم الطويل لها .

ظهر على مسرح هذه الفترة ولعب دورا فيها بلسانه وقلمه ، وحفظه  
له المؤرخون الأقدمون وقدروه له ، وأغفله المحدثون الذين خصوه بترجمات  
موجزة لاظهار اهميته الأدبية في الأغلب - ولم يخصه أحدهم ببحث خاص  
يضعه فيه حيث يجب أن يوضع .

تعرفت الى القاضي الفاضل في بادئ أمرى كفضيل . صاحب طريقة  
خاصة في الكتابة فوامها البديع ، ثم ازدادت معرفتي به من خلال دراساتي  
التاريخية لعصر صلاح الدين حيث اطلعت على بعض رسائله المحفوظة في كتاب  
الروضتين \* لأبي شامة ، وعلى شيء يسير من سيرته شعرت على أثرها بالكثير من  
التشابه بين ظرفه كالمسطيني اضطران يقضي القسم الأكبر من حياته خارج بلاده ،  
لاحتلال الفرنج لها ، وظرفي الحاضر كالمسطينية أعيش خارج بلادى لاحتلال  
اليهود لها ، وأحسست بشيء من الرغبة يدفعني الى التزيد من معرفة تاريخ  
فلسطين والبلاد العربية اثنا عهد صلاح الدين ، ورأيت في القاضي الفاضل

خير مثل لها ، لذلك فضلت اختياره موضوعا لرسالتي هذه مدفوعة بعامل آخر هام ، هو عدم وجود بحث مستقل عنه .

فأمل أن أوفيه حقه في هذا البحث وأضعه في مكانته اللائقة به .

## ٢- تقييم المصادر والمراجع الباحثة في القاضي الفاضل

بإمكاننا ان نقسم المصادر والمراجع ذات العلاقة المباشرة بالقاضي الفاضل بالنسبة لأهميتها الى ثلاثة أقسام :

- (١) رسائله ومذكراته وديوان شعره .
- (٢) كتب التاريخ والأدب القديمة التي تحدثت عنه
- (٣) المراجع الحديثة التي قامت بمحاولات لدراسته .

### ١- رسائل القاضي الفاضل وديوان شعره

#### ١ - رسائله

توجد رسائل القاضي الفاضل في شكلين ، احدهما مخطوط ، لم تجر محاولات لنشره حتى الآن . والآخر موزع في بعض كتب التاريخ والأدب

أما المخطوط من رسائله ، فقد تمكنت بمساعدة مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت من الحصول على أربع مجموعات منها ، مصورة عن مخطوطات بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية ، اطلعت عليها وحاولت أن أستعين بالمادة الموجودة فيها قدر الامكان لدراسة حياته وشخصيته وأدبه . وقد تفاوتت مجموعات هذه المخطوطات بين رسائل اخوانية وديوانية ، ووردت فيها رسائل عديدة مشتركة ، الا ان كل منها تفردت بمختلف بناحية من النواحي سواء من حيث الرسائل ونهجها او من حيث القاء ضوء على القاضي الفاضل وعصره . اما اكثر المخطوطات علاقة بالقاضي الفاضل نفسه فمخطوط :

(١) الفاضل من كلام الفاضل : وهو مخطوط مصور ، جمع فيه

جمال الدين ابن نباته ( ت ٧٨٦ هـ ) مجموعة من رسائل

واقوال القاضي الفاضل ، ومقتطفات عديدة من بعض رسائله

طغت بكثرتها على عدد رسائله التامة في هذا المخطوط .

وقد تفرد هذا المخطوط بايراد اكبر عدد من المقتطفات مسن

رسائل الفاضل التي تلقي ضوءا على حياته ، خاصة فيما يختص بصحته ومسيرته

الاجسامية بوجه عام ، والأمراض التي كانت تنتابه بين آن وآخر حتى وفاته .

المتأزم في البلاد زمن صلاح الدين لكثرة ما ورد فيها من رسائل السفارات  
والتذمر من الحالة الاقتصادية المضعفة اثنا حكم العزيز عثمان .

(٣) من ترسل القاضي الفاضل

مخطوط مصور بخط موفق الدين الدياجي ، احد كتاب الانشا  
زمن الملك الكامل بن أيوب . تقع اهميته بالأغلب في الناحية التاريخية ، ويتفرد  
بايراد ثلاثة رسائل تاريخية هامة تصف احداها الموقف بين صلاح الدين  
والفرنج بسوريا ، وتتحدث الثانية ، وهي مرسله الى الديوان ببغداد عن فتوحات  
السلطان ، والثورات الداخلية التي سببها بعض الشيعة ، والسودان ، ووقعة  
دمياط . كما تبحث الثالثة في فتح عسقلان .

(٤) الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم

وصلتنا نسختان عن هذا المخطوط ، نسخ احداها محيي الدين  
ابن عبد الظاهر ( ت ٦٨١ هـ ) ، ونسخ الأخرى شخص مجهول بيدوانه نقلها  
عن نسخة ابن عبد الظاهر لتشابه الكلمات والأخطأ . وأدخل خلالها كتابا أخرى  
في موضوعات مختلفة لا علاقة لها بالقاضي الفاضل .

أهم ما في المخطوطين ، رسالتان تاريخيتان لم تردا في  
غيرهما من المخطوطات ، أحدهما إلى بني جعفر وطلحة ، بعض العرائر  
المتخلفة عن حرب الفرنج في مصر زمن الوزير شاور ، والآخرى إلى محمد ابن  
قاضي عكا ، يوصيه فيها بما يعتمد عليه في رسالته إلى ملك الروم . وقد كشفت  
الأولى عن علاقة المصريين بالفرنج في تلك الفترة ، وانشاقاق المصريين فيما  
بينهم . كما كشفت الثانية عن علاقة المسلمين بالجنوبيين وبحاكم القسطنطينية .

أما رسائله الموزعة بين كتب التاريخ والأدب ، فقسم كبير منها مشترك  
بين هذه المصادر والمخطوطات ، كما أن قسما منها يساعدنا بالتعرف <sup>عليه</sup> إليه ، إلا  
أن علاقتها في الألب بتاريخ العصر ، وأدبه ، وهي كغيرها من رسائله المخطوطة  
المساعد الأول في دراسة أسلوب القاضي الفاضل .

### ب - شعر القاضي الفاضل

قام الدكتور أحمد بدوي مؤخرا بتحقيق الجزء الأول من ديوان القاضي  
الفاضل ونشره . وقد أفادنا في ذلك بأن عرفنا إلى قسم كبير من شعر القاضي  
الفاضل لم يكن من السهل العثور عليه . وأعاننا على إقامة دراسة لشعره .  
وقد اعتمد بعض المصادر التاريخية والأدبية لأعانتة في تحقيق الديوان ، وأغفل  
بعض المصادر التي تحتوى شعرا للفاضل ، أمثال مطالع البدور للغزولي ،

والغيث للصفدي ، والأعلاق الخطيرة لابن شداد . وبعض الأبيات العديدة الواردة ضمن بعض رسائل القاضي الفاضل . وكان يخطئ في نقل الكلمات الصحيحة في بعض المواضع ، فينقلها مصحفة دون ان يصححها في الهامش . كما كان يخطئ في نسبة أبيات لأصحابها الحقيقيين في الهامش ، كأن يذكر أبياتا من الشعر على أنها للمتنبّي ، مثلا ، وهي في الحقيقة لأبي نواس .

وشعر القاضي الفاضل على العموم لا يلقي كثير ضوء على حياة القاضي الفاضل لولا أبيات <sup>تنبية</sup> عتيقة وعف فيها حاله في أول أمره بالكتابة وطموحه . وأبيات أخرى مدح فيها الصالح بن رزيق لأعلاء منزله . وما عداه فتكشف عن علانته يحكام عصره .

## ٢- كتب التاريخ والأدب القديمة التي تحدثت عن القاضي الفاضل

تمكنت من الرجوع الى عدد كبير من مصادر التاريخ والأدب المنشورة الباحثة في العهدين الفاطمي والأيوبي و حاولت ان استفيد منها قدر الامكان في سيرة القاضي الفاضل ومكانته الاجتماعية والسياسية والأدبية ، وفي التعرف الى رسائله وأشعاره المبعثرة في ثنايا بعضها . وقد لاحظت اشتراك بعضها في كثير من الروايات عنه ، الا انها تفاوتت بأهميتها بالنسبة للقاضي الفاضل . لذلك سأكتفي هنا بذكر أهم المصادر الباحثة في القاضي الفاضل ، تاركة الباقي لفهرس المصادر .

أ - كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ، لشهاب الدين

ابي شامة ( ت ٦٦٥ هـ ) .

يعد من افضل المصادر التاريخية لدراسة القاضي الفاضل ،

فمؤلفه يتلقت اخبار الفاضلي ويتحدث عنه باسهاب ، ويحاول في مواقف عديدة ابراز اهميته في عصره ، ويكثر من ذكره خاصة في الجزء الثاني من تاريخه . كما انه يعتمد رسائل القاضي الفاضل الى حد بعيد كمصدر له في تاريخه . وقد حفظ له بذلك عددا كبيرا من رسائله التاريخية .

ب - وفيات الأعيان منشمس الدين ابن خلكان ( ت ٦٨١ هـ )

ترجم مؤلف الكتاب للقاضي الفاضل ترجمة مستقلة ، كما تحدث

عنه خلال بحثه لمسيرة بعض الأشخاص المعاصرين له من حكام وأدباء ، وتغرد بالتحدث عن والد القاضي الفاضل . وأورد له شيئا من رسائله ، الا انه وجه للقاضي الفاضل اتهاما خطيرا لم يوجهه له غيره من المؤرخين ، وهو انه لم يكن اصيلا في كتابته ، بل كان جل اعتماده على كتابة ابن أبي السخيا ، احد الكتاب الفاطميين .

ج - عبيح الاعشى في صناعة الأتشا ، لأبي العباس القلقشندي

( ت ٨٢١ هـ ) .



حفظ لنا مؤلف هذا الكتاب عددا كبيرا من رسائل القاضي الفاضل  
الديوانية ، من سجلات وهمود ورسائل تاريخية أورد معظمها تامة ليدل بها على  
أساليب الكتابة الاتشائية في العهد الفاطمي والأيوبي ، وقد اتخذ من رسائل  
القاضي الفاضل نموذجا لكتابة ذلك <sup>المصر</sup> ~~المصر~~ فأصبح من المصادر الرئيسية لدراسة  
أسلوب الفاضل .

د - المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، لتقي الدين  
المقريزي ( ت ٨٤٥ هـ ) .

خصص فصلا للحديث عن القاضي الفاضل ومدرسته الفاضلية . وعن  
بعض منشأته الخيرية . كما انه تفرد من بين المصادر التي عثرت عليها ~~فحده~~  
بحفظ قسم من متجدداته وتعليقاته على المتجددات ، فعرفنا بذلك الى نوع  
جديد من أدب القاضي الفاضل وتاريخه .

### ٣- المراجع الحديثة التي قامت بمحاولات لدراسة القاضي الفاضل

رجعت الى بعض المراجع الحديثة الباحثة في سيرة القاضي الفاضل  
وأدبه ، امثال كتاب الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، للدكتور احمد بدوي ،  
و٤٤٤٤

ودراسات في الشعر في عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسين . وكتاب  
أدب الحروب الصليبية للدكتور عبد اللطيف حمزة وغيرها . كما اطلعت على  
مقال للدكتور كارل بروكلمان بعنوان القاضي الفاضل ، في دائرة المعارف  
الاسلامية ، الا انني لم استفد من هذه المراجع كثير فائدة لعشوري على العادة  
الوجودية فيها في مصادرها الاصلية ، لذلك فضلت استقائها من نبعها . واكتفيت  
بها بما تهديني اليه بالتعرف الى مصادر كنت غافلة عنها . ولا بد لي في  
هذا المقام من ذكر بعض الفهارس التي اشرفت على اعدادها هيئة الدراسات  
العربية في الجامعة الأميركية في مساهمة المؤرخين العرب في المائة السنة  
الاخيرة في دراسة التاريخ العربي ، والاذب العربي ، وأخص منها فهرسين كانا  
رائدين لي في بحثي هذا ، أولهما الفهرس الذي أعده الدكتور قسطنطين زريق  
في دراسة العهد الصليبي وثانيهما ، الفهرس الذي أعده الدكتور محمد كامل  
حسين في دراسة الأذب الفاطمي . ولم أعتد المصادر الغربية الباحثة في  
العصر الصليبي لاهتمامها بالناحية التاريخية في الأقلب .

## فهرس الموضوعات

- ١- مقدمة في دراسة عصر القاضي الفاضل
- الكتاب الأول - سيرة القاضي الفاضل
- ٢-١ (١) مدخل للتعريف بأسرته ونسبه
- (٢) مراحل حياته
- ١٤-٥ أ- المرحلة الأولى من حياته
- ٢٦-١٤ ب- المرحلة الثانية من حياته
- ٣٣-٢٧ ج- المرحلة الثالثة من حياته
- الكتاب الثاني - شخصية القاضي الفاضل
- ٣٦-٣٤ (١) عورته الجسمانية
- ٥٠-٣٦ (٢) العناصر الهامة في شخصيته
- ٧١-٥١ (٣) شخصيته من حيث آثارها في بيئته
- الكتاب الثالث - القاضي الفاضل النائر والشاعر
- (١) القاضي الفاضل النائر
- أ - مقدمة الفتر قبل القاضي الفاضل
- ٧٤-٧٢ (١) في المشرق
- ٧٨-٧٤ (٢) في مصر

٨١-٧٨	ب - نثر القاضي الفاضل
	(١) انواع رسائله
٨٤-٨١	(أ) الديوانية : العهود والسجلات
٨٦-٨٤	(ب) التاريخية
٨٧-٨٦	(ج) الاخوانية
٩٠-٨٧	(٢) طريقة القاضي الفاضل الانشائية
	(٣) خصائص أسلوبه
١٠١-٩١	(أ) المحسنات اللفظية
١٠٢-١٠١	(ب) المحسنات المعنوية
١٠٦-١٠٢	(ج) الصور البيانية
١١٠-١٠٧	(٤) تقييم نثر القاضي الفاضل
١١٢-١١٠	(٥) مقارنة أسلوب الفاضل بأساليب بعض معاصريه
١١٤-١١٢	(٦) أثره فيمن جاءوا بعده من الكتاب
١٣٦-١١٥	(١) القاضي الفاضل الشساعر

- لائحة المصادر والمراجع

- خاتمة

## مقدمة في دراسة عصر القاضي الفاضل

لست أزمع اني في هذه اللوحة الموجزة أدرس عصر صلاح الدين وما قبله وما بعده ، وهو عصر ذو زوايا وجوانب متعددة ، فان دراسة عصر ما على نحو مطول في التفصيل لدراسة احد رجاله أمر يعد في نظري مستهجنا اذ هو عكس للقضية . فبينما يجب ان تتعدد الدراسات للأفراد البارزين في عصر ما ، لتكون للعصر صورته واضحة بعض الوضوح ، ارانا نكتب المقدمات عن العصر لدراسة فرد واحد ، ولو فرضنا ان دراسة العصر أمر في مقدور الدارس ان يحفقه ، لما كان هذا الموطن صالحا لها ، لما تقتضيه دراسة العصر من توسع كبير ، تصبح الى جانبه الدراسة الأصلية شذرة صغيرة .

لهذا كله لن أتعرض الا الى لوحة موجزة تصلح ان تكون اطارا

توضع فيه صورة القاضي الفاضل حسيما أرسبها في الصفحات التالية .

وانا شئت التحديد قلت ان القاضي الفاضل رأى نهاية حكم وبداية حكم آخر . رأى الضعف والفساد والغزو الخارجي والتقاتل على السلطة في نهاية العصر الفاطمي ، ورأى الانتقال من هذا الوضع الى وضع جديد ، فهو ابن فترتين ، لورسنا لهما خطا بيانيا لكان الارتفاع في الخط ~~مما~~ متوازيا تماما في حياة العصر وحياة الأديب الذي أدرسه .

وقد كان الوضع الجديد في صبغته العامة حركة قوية تهدف لطمس الماضي وإزالة آثاره ، لذلك كانت راية الجهاد التي رفعها صلاح الدين لا تعني توحيد القطرين المصري والشامي فحسب ، واستغلال مواردهما البشرية وفير البشرية في سبيل القضاء على الصليبيين ، بل كانت تعني أيضا محاولة لاعادة السنة والقضاء على التشيع وكانت هذه حركة هجومية واصلاحية معا ، اعني انها استدعت شيئا من العنف في مطاردة المذهب الفاطمي ، كما استدعت نشاطا عاما في الاصلاحات الداخلية كبناء المدارس والمساجد والمستشفيات ونشر التعليم السني على نطاق واسع ليتسنى للمذهب السني ان ينتصر .

ويجب الا نفرد صلاح الدين بهذا الاتجاه ، فانه سار فيه منما لما بدأه نور الدين زنكي (1) من ناحية ، فآمن مثله بضرورة تأمين الاتصال بين مصر والشام ، وآمن مثله ايضا ببدء الجهاد ، وحاكاه في تحقيق العدالة ومحاولة نشرها في ارجاء البلاد ، كما يجب دائما ان نتذكر طابع الناس الذين وقفوا الى جانبه يؤيدونه في القول والعمل ، وكان اعلان الجهاد في النواحي السياسية والاصلاحية يقتضي أنموذج الرجل المتدين مثل القاضي بهاء الدين ابن شداد ، والقاضي الفاضل ، والفقيه الخيوشاني ، الذين تصل بهم نزعة التدين أحيانا حد التشدد . وفي مثل هذه البيئة برزت شخصية " القاضي الفاضل ، واضطلعت بالمسؤوليات الجسيمة .

---

(1) المقرئ ٢ ، ٢٦٢

على ان صلاح الدين نفسه كان " انموذجا " أعلى لمن حوله ،  
 فقد حُرم على نفسه ما كان لدى الخلفاء الفاطميين من مجالس الشرب والطرب  
 لأنه كان متقشفا تاركا للهو والشرب . (١) وتخل عن كثير من مظاهر الترف  
 كالأعياد الكثيرة التي بلغت في زمن الفاطميين ثمانية وشرين عيداً (٢) وانصرف  
 الى مهام الامور ، ولم تنسه واجباته الحربية الكثيرة ان يلتفت الى حال الرعية فيكثر  
 من نشر التعليم بانشاء المدارس الكثيرة حتى عد المقرئ منها ما يزيد على  
 العشرين مدرسة (٣) ومنها المدرسة الناصرية للشافعية ، والقمحية للمالكية ،  
 والسيوفية للحنفية ، وبه افتدى الرجال العاملون حوله ، وبني القاضي الفاضل  
 المدرسة الفاضلية ، وبني الخبوشاني مدرسة بازا مشهد الشافعي " لم يعمر  
 بهذه البلاد مثله ولا أوسع مساحة ولا أحفل بنا" يخيل لمن يتطوف  
 عليها انها بلد مستقل بذاته . . . . . والنفقة عليها لا تحصى ، وتولى ذلك بنفسه  
 الشيخ الامام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشاني ، وسلطان هذه  
 الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول : زد احتفالا وتأنقا وهدينا  
 القيام بمونة ذلك كله " . (٤)

(١) المقرئ ٢ ، ٢٢٢

(٢) المصدر نفسه ٢٨٤

(٣) المصدر نفسه ٢٦٢ وما بعدها

(٤) ابن جبير ، ٤٨

ولعل اكثر ناحية اصلاحية لفتت علاج الدين بعد المدارس هي الاكار  
من بناء المستشفيات في كل بلد وتوظيف ما يلزم لها . ونستشهد من ابن جبير  
على بعض هذه المظاهر الاصلاحية بقوله " وما شاهدناه ايضا من مفاخر هذا  
السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائعة  
حسنا واتساعا ابرزه لهذه الفضيلة اجرا واحتسابا وعين فيما من أهل المعرفة  
وضع لديه خزائن العقاقير ومكته من استعمال الاشرية وانامتها على اختلاف  
انواعها ووضعت في مناصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة  
الكسي ، وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد احوال المرضى بكرة  
وعشبة فيقابلون من الاقدية والاشرية بما يليق بهم . (١) وهذا مثل واحد  
من المارستانات الكثيرة بالاضافة الى ما انشاء من خانقاهات للصوفية . (٢)  
والحق ان المرافق العامة التي انشأها هذا السلطان لتحسين احوال الناس  
وتيسير التنقل على الغرباء والحجاج وما الغاء من رسوم وضرائب (٣) تحتاج  
دراسة مستقلة تفيض عن حدود هذه المقدمة الصغيرة .

وكان لصالح الدين مبدأ جرى عليه في حياته ، ولهذا المبدأ

ثلاثة فروع :

١- الحلم ، فهو يفضل دائما العفو على انزال العقوبة (٤)

(١) المصدر نفسه

(٢) المقرئى ٢ ، ٢٦٣

(٣) ابن أياس ١ ، ٧٠ ، ابن جبير ٣٢

(٤) ابوشامة ٢ ، ٢١٨



٢- السخا ، وهو ايضا لا يرد طلب قاصد ، حتى انه توفي وخزائنه

تكد تكون خالية من الاموال لكثرة هباته . وكان لهذا اثر في حياة الاديبي (١)

٢- للمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعي <sup>مبسط</sup> للخاصة

والعامة وانما هو (صلاح الدين) عبد للشرع وشخصته (٢)

وقد كان كاجتماع هذه الخصائص في شخصه سببا في نجاح

جانب كبير من حركته الاصلاحية . الا ان هذا لا يعني ان الرخاء قد عم الناس وان

العدالة شملت الجميع . ولا بد ان يكون هناك فرق بين ما يطلبه الحاكم وما

يستطيع تحقيقه ، ولناخذ مثلا على ذلك من مقيدات القاضي الفاضل نفسه -

كانت الاعياد في زمن الفاطميين مسرحا لمجاوزة الحدود الاخلاقية ، فلما كان زمن

الايوبيين صدرت اوامر السلطان بالنهي عن ضروب من اللهو معينة ومن التظاهر

بالمكر ، ولكن " يقيد القاضي الفاضل في متجددات عام ٥١٤ هـ هذه الملاحظة

" ظهر في هذه المدة من المنكرات ما لم يعهد في مصر في وقت من الاوقات ، ومن

الفواحش ما خرج من الدور الى الطرقات ، وجرى الماء في الخليج بنعمة الله تعالى

بعد القنوط ووقوف الزيادة في الذراع السادس عشر ، فركب أهل الخلافة ونور

البطالة في مراكب في نهار شهر رمضان ومعهم النساء الفواجر وبأيديهن المزاهر

يضررن بها وتسمع اصواتهن ووجوههن مكشوفة ، وحرفاً وهن من الرجال معهن

(١) المصدر نفسه ، ٢١٧

(٢) ابن جبير ٢٩٧ - ٢٩٨ " الشحنة صاحب الشرطة " ابن جبير ٢٩٨

في المراكب لا يضعون عنهم الأيدي ولا الأبصار ولا يخافون من أمور ولا مأمور  
شيئا من أسباب الإنكار \* (١) . وذكرني رسالة الى صلاح الدين ان " المعاصي  
في كل مكان بادية ، والمظالم في كل موضع فاشية ، وقد طلع الى الله تعالى  
منها ما لا يتوقع بعدها الا ما يستعاز منه " (٢) وقد يحمل الاسلوب البياني  
الذي ينتحيه الفاضل <sup>أحيانا</sup> على المبالغة ، ولكن تبقى هناك حقيقة لا قبل لنا بردها ،  
وهي ان هناك مظالم ومعاصي وان الفاضل لو اراد ان يناق لسيدته لأخفاها  
ليقول له ان عهدنا زاهر وان العدالة لوجوده قد عمت . غير ان القاضي الفاضل  
كان مخلصا وكان يعلم ان صلاح الدين حرص على ان يعرف الواقع وان يحاول  
اصلاح الأمور ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ومثل هذا يشير الى حقيقة هامة  
وهي ان تفاهم الحاكم ورجاله على غاية اصلاحية - دون منافقة المرؤوسين -  
يهيئ السبيل الى انجاح الخطة ويجعل النسبة الكبرى في جانب الخير .  
وفي مثل هذا غل الجور من العمل <sup>الرأي على</sup> التماس على تغيير الوضع الماضي  
لا حلال جديد في مكانه يمكن ان تتم النتائج التالية :

(١) المقرئى ٢ : ١٤٣

(٢) ابوشامة ٢ ، ١٦٦

- ١- التوفر على الدراسات الدينية من نقه وحديث وقرارات وتفسير (١)  
والنفور من الدراسات الفلسفية والتخرج من المناظرات العقلية . (٢)
- ٢- ظهور نشاط واسع في علم الطب لسد حاجة اليمارساتانات  
الكثيرة . (٣)
- ٣- تشجيع حلقات الاُذُب وبخاصة الاُذُب الذي يؤيد الاتجاه الجديد (٤)
- ٤- استحداث رسوم جديدة في النواحي الادارية والعسكرية وغيرها . (٥)
- ٥- ضياع كثير من الآثار الفكرية التي تخالف في اتجاهها الحركة  
الجديدة او اعدامها عمدا . (٦)

- 
- (١) يدل على هذا المؤلفات العديدة في هذه الموضوعات . السيوطي ١٨٩ ١٤٤ ٢١٤ ٤  
٢٣٦ ٤ ياقوت ١٥ ٦٦ ٤ ١ ٤ النعماني ١ ٢٩ ٥ ٤ ابن خلكان ٢ ٤٧١ ٤ .
  - (٢) اظهنا شهاب الدين السهروردي في هذه الفترة لاشتغاله بالفلسفة خير  
مثال على ذلك " ابن ابي أصيبعة " ٢ ٤٧١
  - (٣) ابن ابي أصيبعة ٢ ٤٦ ٤ ٢٤٦ ٤ ١٣٣ ٤ وغيرها من الصفحات
  - (٤) يظهر هذا التغيير في اسلوب شعرا العصر .
  - (٥) راجع القلقشندي ١٤ ٤ ١٤ - ٣٧
  - (٦) ابوشامة ١ ٤ ٢٦٨

٦- تهرب الشعراء والأدباء من المبالغات التي تعطيها العقيدة

الفاطمية الى المبالغة في الشكل والاسراف في النواحي البديعية . ولذلك فقد

قد نصف هذا العصر بشي من الحرج في قبول الرأي المخالف في الفكر والعقيدة والاتجاه السلوكي ، والميل الى شي من التزمّت والأخذ بالتقاليد ورعاية "المظاهر" .

- ٢ -

ولما كانت الرسوم الادارية لا تمننا في فهم القاضي الفاضل ، فانا لن

نوجه الاهتمام منها الا الى ديوان الانشا ، فان فهمنا لوضعه حينئذ ذو صلة بموقف القاضي الفاضل فيه .

اصاب ديوان الانشا زمن الايوبيين شي من التغيير الذي

اصاب غيره من النظم الفاطمية ، لكن بما ان علاقة القاضي الفاضل بالكتابة بدأت

فيه زمن الفاطميين فيهمنا ان نخصه بقسم من بحثنا هذا .

كان ديوان الانشا يتألف زمن الفاطميين من عدد من الكتاب

لكل منهم عمل خاص يقوم به ، ومن تلخيص كتب ، او مراجعتها (١) ، وكتابة تقليدات

في الحوادث الهامة ، ومكاتبة الملوك والحكام الاجانب ، (٢) ومكاتبة رجال

الدولة وكبرائها ووجهها من الأجناد والقضاة والكتاب وغيرهم ، وانشا تقليدات

ذوي الخدم الصغار والامانات وكتب الاعيان ، (٣) ونسخ ما في الديوان من

كتب وما يصد رعه ، وتبييض الانشآت والسجلات والتقليدات (٤) وغيرها .

(١) المفريزي ٢ : ١١٧ - (٢) المصدر نفسه ١٢٦

(٣) المصدر نفسه ١٣٠ (٤) المصدر نفسه ١٤٤

يشرف عليهم جميعا كاتب كبير يشترط فيه ان يكون واسع الاطلاع ، له مقدرة على فن الانشاء يقال له رئيس ديوان الانشاء ، (١) او صاحب الدست الشريف ويخاطب بالشيخ الأجل ، ويقوم بتسليم المكاتبات الواردة مختومة ويعرضها على الخليفة . (٢) ويليه اثنان في الرتبة ، الموقع بالقلم الدقيق على المظالم المرنوعة ، وصاحب القلم الجليل الذي ينفذ ما يقوم به صاحب القلم الدقيق ويبسطه ويرسله للخليفة . (٣)

ولعل القاضي الفاضل كان في هذه الفترة الموظف المسؤول عن انشاء التقليدات والكتب في الحوادث الكبار والمهمات ، لأن ما وصلنا من سجلاته ورسائله التاريخية في آخر العهد الفاطمي يدل على ذلك .

ثم أخذت مكانته ترتفع حتى أصبح يقوم بعمل "موفق الدين بن الخلال" رئيس ديوان الانشاء في ذلك الحين . ولما تم الانقلاب على يد صلاح الدين ، أصبح القاضي الفاضل يقوم بالوزارة وكتابة السر معا ، وهي الوظيفة التي حلت محل وظيفة رئيس الديوان ، وأصبح عمله في الديوان ككاتب سر "قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة اجوبتها ، وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها ،

(١) ابن الصيرفي ١٥٤

(٢) الصقريزي ٢٤٤٤٤٢

(٣) القلقشندي ٣ : ٤٩١

وتصريف المراسيم ودا وعدرا ، والجلوس لقرأة القصص بدار العدل والتوقيع عليها \* (١) وكان يعارنه في ديوانه فنتان من الكتاب ، كتاب الدست ، الذين كانوا يعارنونه بالجلوس في دار العدل ويقراون القصص على السلطان ويوقعون عليها بأمره ، وكتاب الدرج ، الذين كانوا يكتبون الولايات والمكاتبات ونحوها ما يكتب عن السلطان ، وربما شاركهم في عملهم كتاب الدست (٢) .

ولا بد لنا أخيرا من كلمة صغيرة في اللغة الناحية الأدبية . فقد ظهرت في هذه الفترة حركة واسعة في التأليف ، واهتم الناس بشعر المتنبي وأخذوا يدرسونه ويشرحونه . (٣) واستعملوا فنونا شعرية جديدة بعضها من منابع البيئة مثل وزن الزكالكس الذي يسميه العراقيون كان وكان ، وبعضها واند مثل الموشحات التي برع فيها ابن سناء الملك وألف فيها كتابه " دار الطراز في صنع الموشحات " .

وتابع صلاح الدين سياسة الفاطميين في اهتمامهم بأمر الأدب والشعر ، وتشجيعهم واغداق الأموال عليهم في حال إعجابه بشعرهم . كما فعل مع أبي حفص عمر بن أبي نصر المعروف بأبن الشحنة حين وهبه ألف دينار على قصيدة مدحه بها ، أولها :

---

(١) الفلقشندي ٤٤ ، ٣٠

(٢) المصدر نفسه ، ٣٠

(٣) ابن الأثير - الوشي المرفوم ١٠

سلام مشرق قد براه التشويق على جبة الحَيّ الذين تفرقوا (١)

ومع المهذب بن ساني عندما أنعم عليه بالخلعة والضيعة

عندما أنشده وهو مخيم بظاهر حمص قصيدة أولها :

ما نام بعد البين يستحلي الكرى الا ليطرقه الخيال اذا سرى (٢)

وتسيرهما

وحذا حذوا صلاح-المدِين في تقريب الأدبا والشعرا اقربا وه

ورجال دولته ، من بينهم القاضي الفاضل الذي كان يرضى مجموعة الأدبسا

في عصره ويفترسهم من السلطان ويعطيهم المراكز العالية وقد كان لتضافر

الجهود هذه في اعطاء الأديب مكانته طليق في ازدهار أدب الفترة .

---

(١) ابن خلكان ٦ : ٢١٠٦ - ٢١١

(٢) الأصفهاني ٢ : ١٦٩٦

الكتاب الأول

-----

سيرة القاضي الفاضل

-----



مدخلی للتعريف بنسبه وأسره

عبد الرحيم ابن علي بن أحمد بن الفرّج بن أحمد ، ابو علي ، الملقب

بمحيي الدين ، (١) وحجير الدين (٢) البيساني ثم العسقلاني ثم المصري . (٣)  
ينحدر من قبيلة لخم العربية . (٤)

اختلف المؤرخون في تاريخ ولادته فذكر اكثرهم (٥) انه ولد سنة

تسع وشرين وخمسائة ، بينما ذكر بعضهم (٦) انه ولد سنة ستة وشرين وخمسائة ،  
والأصح ان يكون قد ولد سنة ست وشرين وخمسائة ، ذلك انه اشار في احدى  
رسائله الى أنه تجاوز السبعين عاما حيث قال " فأَنْ السبعين قد جرت عتبتها ،  
وقطعت عفتها ، وأسأل الله الخيرة في القدوم عليه ، واللفظ عند الوقوف بسين  
يديه " . (٧) وتوفي سنة ستة وتسعين وخمسائة حسب اجماع المؤرخين لسيرته  
ما يؤكد صحة الرواية الثانية في مولده .

ولد في مدينة عسقلان (٨) ونسب اليها ، كما نسب الى بيسان لأن

والده القاضي الأشرف ابا المجد علي بن الحسن ، يتولى قضاءها ونظرها من قبل  
الفاطميين مدة طويلة (٩) انتقل بعدها الى عسقلان ليتولاها فيها ، وانتهى به  
المقام في القاهرة حيث لقي حتفه سنة ست واربعين وخمسائة على أثر عذبة انقذت له رسمته .

(١) المقرئى : ٢ ، ٢٦٦

(٢) ابن خلکان : ٢ ، ٣٣٦

(٣) الحنبلي : ٤ ، ٣٢٤

(٤) ابن خلکان : ٦ ، ٢٢٠ - المقرئى : ٢ ، ٣٣٦

(٥) ابو خشيمة : ابن خلکان : ٢ ، ٣٣٦ ، المقرئى : ٢ ، ٣٦٦

(٦) ابوالفدا : ٣ ، ٩٨

(٧) الفاضل من كلام الفاضل ، مخطوط مصور ، المصنوع غير مرقم

(٨) ابن خلکان : ٦ ، ٢٢٠

(٩) المصدر نفسه : ٦ ، ٢٢٠

ذلك انه اختلف مع والي الناحية من أجل " كعد (١) كبير كان له عندهم قيمة كبيرة ، فداجن الوالي في حقه وأطلقه - فاستدعي الوالي الى مصر لذلك وطولب بمسال طائل - فاحتس ببعض أمراء الدولة ، وجعلوا الاقارب في حق القاضي الأشرف فاستدعي وصور الى ان لم يبق له شيء ، ولم يكن معه من الأولاد سوى القاضي الفاضل فحمل على قلبه وتوفي بالقاهرة " . (٢)

وكان عبد الرحيم احد ثلاثة أخوة نشأوا وأقاموا في يادى أمره في مدينة عسقلان حتى شب عبد الرحيم فاتفصل عن أخويه ليقيم في مصر سعيا وراء علمه ورزقه ، مخلفا أخويه في عسقلان الى ان احتلها الفرنج سنة ثمان وأربعين وخمسائة فلجأ اليه حيث كان يقيم في الاسكندرية ، (٣) وشفا طريقهما في ميدان العطل فيها ثم تمكن احدهما ، وهو عبد الكريم من تحصيل ثروة طائلة نتيجة عمله بولاية الحكم والاشراف في البحيرة . (٤) الا ان علاقاته مع أخيه عبد الرحيم كانت سيئة وانتهت بشجار بين الأخوية جعل حال عبد الكريم يتضح بين الناس بعد احترامهم له ، وتسببت في تركه عمله . (٥) والظاهر ان سوء خلق عبد الكريم وعدم استقامته كانا سببا في ثورة أخيه عليه وفي تسبب بعض المشاكل له . فقد كان متزوجا بامرات موسرة من بني ميسر ، سكن معها في شجر الاسكندرية ، وأسا عشرتها ،

---

(١) كذا في الأصل ولعلها كز

(٢) المصدر نفسه ، ٢٢٠

(٣) المصدر نفسه ، ٢٢٠

(٤) اختصاص وظيفة الاشراف المقصود هنا مراقبة الأمور المالية عامة في جهة معينة من قبل

سلطان أو أمير . ويسمى متوليها المشرف المقهورى السلوك ، هامش ١ ، ١٢٢٠

(٥) المصدر نفسه ، ١٢٢

فسار ابوها الى الاسكندرية واثبت عند قاضيها ضرر ابنته ، فضى القاضي الفاضل  
بنفسه الى الدار ، فلم يقدر على فتح الباب الذي من داخله المرأة . فأمر بنقب  
الدار ، وأخرج المرأة وسلمها لآبيها واعاد بنا<sup>عمرنا</sup> النقب . (١) وتوصل بعبد الكريم  
فناه وطمعه الى ان عرض على الملك العزيز اربعين الف دينار لفا<sup>عمرنا</sup> ولاية قضا  
الاسكندرية ، لكن الملك العزيز رفض العرض قائلا ، اذا قبلت هذا منه ، اكون قد  
بعث اهل الاسكندرية ، وهذا لا افعله ابدا . (٢) وقد قبض على اخيه هذا  
عام ٦٠٢ هـ وأخذ خطه بعشرين الف دينار اداها . (٣) وأما اخوه الثاني  
فلا نعرف عنه الا ما ذكره ابن العماد الحنبلي من انه كان له هوس مفرط في تحصيل  
الكتب ، وكان عنده مائتا الف كتاب ، من كل كتاب نسخ كثيرة حتى الصحاح ثمانى  
عشرة نسخة . (٤)

---

(١) المصدر السابق ، ١٢٢

(٢) المصدر نفسه ، ١٢٢

(٣) المصدر نفسه ، ١٦٥

(٤) الحنبلي ، ٤ ، ٣٢٤ - ٣٢٥

## مراحل حیاتہ

نستطيع ان نقسم حياته المعطية الى ثلاث مراحل متمايزة : أولاها  
الفترة بين نشأته الأولى منذ ان انتقل الى مصر حتى نهاية الدولة الفاطمية ،  
وثانيها ، الفترة التي عاشها في صحبة صلاح الدين ، وهي تمثل الذروة الكبرى في  
حياته ، عامة ، والثالثة ، ما بعد ذلك حتى وفاته ، وهي فترة الانحدار وانحسار  
النشاط السياسي ، مع الاحتفاظ بالمكانة المعنوية ، وتوقعه للموت واستسلامه  
للمرض والشيخوخة والموت .

### المرحلة الأولى من حياة القاضي الفاضل

" ٥٤٤ - ٥٦٤ هـ " " ١١٤٩ - ١١٦٨ م "

بدأ المؤرخون لسيرة القاضي الفاضل الحديث عنه باسهاب منذ انتقاله  
الى القاهرة ، واختلفوا في تعيين السنة التي انتقل اليها فيها ، وسبب رحيله اليها .  
فأورد ابن خلكان رواية ذكر فيها ان والد القاضي الفاضل أرسله الى القاهرة في  
عهد الخليفة الحافظ (١) ليتدرب على الكتابة الديوانية . ثم صححها برواية أخرى  
ذكر فيها انه انتقل اليها مع والده في عهد الخليفة الظاهر (٢) حوالي عام ٥٤٦ هـ . (٣)

(١) تولى الخلافة في مصر منذ ٥٢٤ حتى وفاته عام ٥٤٤ هـ " ابن خلكان ٢١١ ، ٤٠٠ "

(٢) تولى الخلافة منذ عام ٥٤٤ هـ حتى وفاته ٥٤٩ هـ " ابن خلكان ٢١٥ ، ١١١ "

(٣) ابن خلكان : ٢٢٠ ، ٦٦

الا ان غيره ممن آرخوا للقاضي الفاضل ذكروا ان والده ارسله في عهد الخليفة الحافظ الى ديوان المكاتب في القاهرة زمن الخليفة الحافظ ليتدرب على الكتابة الديوانية فيه . (١) اذ كان من العادة كما ذكر القاضي الفاضل " ان كلا من ارباب الدواوين اذا نشأ له ولد وشدا شيئا من علم الازب احضره الى ديوان المكاتب ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع " . (٢) وقد تكون هذه أصح الروايات ، اذ انه اتصل مباشرة بابن الخلال (٣) رئيس ديوان الانشاء في ذلك الحين وبدأ التدريب على يديه . (٥) وليس بمستبعد ان يكون قد انتقل الى مصر في اواخر عهد الحافظ اذ ان ابن الخلال تولى الديوان منذ اواخر عهد الحافظ حتى عهد العاضد (٥) وكان من اول كتاب العصر الذين اتصل بهم القاضي الفاضل . وقد قص حكاية أبي اتصاله به بعد تعريفه بنفسه فقال " وسألني ما الذي لعددت لفن الكتابة من الكتابة والالات فنقلت ليس عندي شيء سوى اني احفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة ، فقال وفي هذا بلاغ ثم ظهر أمرني بملازمته فترددت اليه وتدرت بين يديه ثم أمرني بعد ذلك

(١) المقرئى ٣٦٦٤٢

(٢) المصدر نفسه ٣٦٦٤٣

(٣) موفق الدين ابن الخلال ، تولى ديوان الانشاء في اواخر عهد الخليفة الحافظ والظافر ، وخدم في عهد العاضد ، اشتهر ببقوته في الترسل ، عاش كثيرا واضر في آخر عمره ، توفي عام ٥٦٦ هـ " ابن خلكان ٣٦٦ و ٢١٩ " .

(٤) المقرئى ٣٦٦٤

(٥) تولى الخلافة في مصر منذ عام ٥٤٩ هـ حتى وفاته عام ٥٦٢ هـ . وكان آخر الخلفاء الفاطميين فيها " ابوشامة ١٩٣٤١ " .

ان أحل شعر الحماسة فحلته من أوله الى آخره ، ثم أمرني ان أحله مرة  
ثانية فحلته \* . (١)

قضى القاضي الفاضل مدة وجيزة في القاهرة ، لم تتحسن خلالها احواله  
العادية ولم يرتو فيها غموحه الى المركز والمجد \* . ولعله نظم في هذه الفترة  
البيتين التاليين ، فانهما يشيران الى حاله ونفسيته حينئذ :

ما ضر جهل الجاهلين                      ولا انتفعت انا بحذفي  
وزيادتي في الحذق فهي                  زيادة في نقص رزقي (٢)

وراح يتطلع الى مكان آخر يجد فيه من يقدره حتى قدره ، ففصد الاسكندرية  
حيث اتصل بابن حديد ، قاضيا وناظرها وعرفه بوالده فاستكتبه (٣) واستأثر  
به في ديوانه حتى ولي وزارة مصر العادل بن رزيق بن الصالح بن طلائع (٤)  
كما يذكر عماره اليمني ، فأعجب بكتابته وطلب من والي الاسكندرية نقله الى  
القاهرة ليعينه رئيسا لديوان الجيش فيها . (٥)

(١) ابوشامة ١ : ١٩٢ - ١٩٣

(٢) الصفدي : ٧٣ ، ٦٢

(٣) ابن خلكان : ٢٢٠ ، ٦٦

(٤) رزيق بن طلائع ، تولى الوزارة المصرية بعد والده ، وكان يلقب بالناصر . قتل

شاور عام ٥٥٨ " أبوشامة ١ : ١٣٠ "

(٥) اليمني ، ٥٣



أورد كل من ابن خلكان وابن كسر رواية مختلفة تمام الاختلاف عن رواية عمارة في زمن وسبب وجه عودته ثانية الى القاهرة ، نذكر ابن خلكان انه عاد الى القاهرة زمن الخليفة الظاهر ، ذلك ان مكاتبات ابن حديد كانت ترد يخط القاضي الفاضل الى مصر ، وهي في غاية البلاغة ، فحسده كتاب الانشا على فضله وخافوا من تقدمه عليهم وسعوا الى الظاهر به محتجين بأنه مقصر في الكتابة وكان صاحب ديوان الانشا القاضي ابن الزبير (١) فقال للخليفة يا مولانا ، هذا الرجل ما منه تفصير ، وانما حسده هؤلاء الكتاب وسعوا به ليؤذيه مولانا الظاهر ، فقال الظاهر ، نكتبك الى ابن حديد ليرسله الينا ويكتب لنا . (٢) وذكر ابن كثير ان شارر (٣) اول من استكتب القاضي الفاضل بغداد استدعى به من اسكندرية من باب السدرة فحظي عنده وانحصر منه الكتاب بالقصر لما رآه من فضله ونضيلته . (٤)

والأرجح ان رواية عمارة الرضي اصح من هاتين الروايتين ، ذلك انه عاصر كلا من القاضي الفاضل والملك العادل بن رزيق ، وذكر في تاريخه لسيرة ابن رزيق قوله " ومن محاسن أيامه ، وما يؤرخ عنها بل الحسنات التي لا توازي واليد البيضاء التي لا تجازي خروج امره الى والي الاسكندرية بتسيير القاضي الاجل الفاضل ،

(١) احمد بن علي بن الزبير ، من شعراء شارر السعدى ، توفي عام ٥٦٢ هـ . ابن تغريبدي ٣٧٤ ، ٥

(٢) ابن خلكان : ٢٢١ ، ٦

(٣) شارر بن مجير السعدى - تولى الوزارة المصرية عام ٥٥٨ هـ ومات مقتولا على يد صلاح الدين عام ٥٦٤ هـ

(٤) ابن كثير : ١٢ ، ٢٥٩

ابي علي عبد الرحيم بن علي البيساني الى الباب، واستخدامه في حضرته وسين  
يديه في ديوان الانشاء " (١) ، كما اشار القاضي الفاضل في مدحه لابن رزيك  
الى فضل الاخير عليه ، ورفع منزلته حين قتل ١

واخطأت بدر التم ليس له صحب	رعى لي ، رعاء الله ، اكرم صحبة
بها حالة قد هز معطفها المعجب	وبدّلني من حالة ذيت رحمة
لعيثي بها خفض ، وقد رى بها نصب	وأحضرني من مجلس الأنس حضرة
وقد وضعت اوزارها عندك الحرب (٢)	وكان لي الدهر الغشوم محاربا

علا شأن القاضي الفاضل في مصر زمن انعام ل بن رزيك الذي عقد  
معه اواصر مودة وصدافة لم تطل مدتها ، اذ سرعان ما اقتيل ابن رزيك بعيد  
شاور (٣) تاركا الفاضل تائها حائرا متسائلا ، هل يتصل بقاتلي صديقه ويبنى محافظا  
على مكانته اريزوى ويتخلى عن طموحه فتضيع حقوقه ، ولعله حاول ان يتمرّد في  
بادي الامر على شاوره ، فاضطهد كما يدل قول الشاعر البغدادي ابي الحسن علي  
بن نصر بن عقيل ، على سبيل التنديد له بقوله " انا خلصتك في أيام شاور مرتين  
ودفعت عنك دفعتين ، وهذه فصائدك في مدحي ، ومقاصدك لمنحي " (٤) لكنه عاد  
فاتصل بالكامل بن شاور الذي أعجب به واتخذ منه صديقا ثم سعى له عند ابيه شاور

(١) اليمني ٥٣٦

(٢) البيساني : ١٥٩٦١

(٣) نقله سنة ٥٥٨

(٤) ابوشامة ٢٤١ ، ٢٤٢

فعمينه مساعدا لابن الخلال في ديوان الانشاء (١) فازدادت منزلته علوا ورفعة وبدأت  
امانيه في الوصول الى رئاسة الديوان تتحقق تدريجا . فقدم مرض ابن الخلال واضطر ان  
يلزم بيته ، وكان القاضي الفاضل ينوب عنه في العمل حتى بدأ زملاؤه الكتاب يحسدونه  
وينقمون عليه ، ولما تولى اسد الدين شيركوه الوزارة طلب كاتباً ، فظن رؤسا الديوان  
ان هذا امر لا يتم وان اسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله ، فأرسلوا بالفاضل اليه  
وقالوا لعله يقتل فنخلص من <sup>مراحمته</sup> مزاحمته لنا . (٢) لكن حسابهم اخطأ ، فاتصل بأسد  
الدين الذي أعجب باتقائه وسمته ونصحته فاستكتبه ورنع من قدره حتى ملك صلاح الدين  
فاختاره مشيراً وزيراً واستعان به على ما اراد من ازالة الدولة الفاطمية . (٣)

ويبدوان عبد الرحيم نال لقب القاضي الفاضل قبل اتصاله بصلاح الدين

از يذكر المقرئ في تلقيبه " بالقاضي الفاضل " انه كان معتقلا مع الكامل ابن  
شارر في دار ملهم أخي ضرقام عند نشوب الفتنة بين شارر وضرقام سنة ٥٥١ هـ ،  
وانعقدت بين الاثنين مودة وصدقة أثمرت عند انتصار شارر على خصمه ضرقام وهودته  
الى الوزارة - از أدخله " الكامل الى ابيه ومدحه عنده واثن عليه نساء حينئذ  
بالقاضي الفاضل . (٤)

---

(١) المقرئ ٣٦٦ هـ ٢

(٢) المصدر نفسه ٣٦٦ هـ

(٣) المصدر نفسه ٣٦٦ هـ

(٤) الشيال ١٥٩ هـ عن المقرئ ، اتعاظ الحنفا في اخبار الائمة الخلفاء ١٥٥

وقد أورد القلقشندي رواية مختلفة بتسميته بالقاضي الفاضل اعتقد  
انها اصح من الرواية الأولى ، ذكر فيها ان لقب القاضي كان يطلق على أرباب  
الأقلام في الجملة ، سواء كان صاحب اللقب متصديا لهذه الوظيفة او غيرها كسائر  
الكتاب العلماء ومن في معناهم . (١) وان لقب الفاضل كان اكثر ما يقع في  
القاب العلماء ، وانه ربما وقع في القاب الكتاب ، وهو خلاف الناقص - والمراد  
به زائد الفضل وبه لقب " القاضي الفاضل " عبد الرحيم البيساني الكاتب  
المشهور . (٢)

ويتمثل لنا القاضي الفاضل في هذا الدور من حياته في صورة شاب  
طموح يريد ان يبلغ المجد بموهبته في الكتابة . وقد اعلنت موهبته عن نفسها لذوى  
السلطان يوشد وأحرز شهرة بينهم مناصبا في الديوان - وكسبت له بين الشعراء والكتاب  
منزلة يمدح من اجلها ويقصد ، وهو موظف مخلص للدولة التي يعيش في ظلها ،  
فخلص لمبادئها حتى انه يمدح الخلفاء الفاطميين ويشيد بأخلاقهم عامة ويرى انهم  
وارثو الأرض كلها .

---

(١) القلقشندي ٥١٦ ، ٥١٦

(٢) المصدر نفسه ٦٦ ، ٦٦

لکم فی زبور اللہ یا مبلغی الذکر      وراثۃ ہدی الارض والخلق والایمیر  
فلا تحسبوا مصرا تخص بملککم      فلا مصر الا سوف یلجا الی مصر (١)

وہو ازاء مدحہم ندد بالعباسیین وبشعارہم " ای السواد " فقال :

نفینا سواد اللیل عن دولة الہدی      فلا رایۃ سودا ولا أمة سودا  
وبین مجازاة ضربنا وجزیة      فمن طائع أتى ومن خالع أودی (٢)

ومدح الخلیفة العاضد وحاول دائما التقرب من الطبقة المکلا الحاكمة کما سنحت الفرصۃ  
لہوز فنراه عام ٥٤٩ هـ فی الوند الذی قصد طلائع بن رزیک لیمتہ فی الوزارة . (٣)  
ووصل أسبابہ بعد انتقالہ الی القاهرہ برزیک بن طلائع الذی تولی الوزارة عام ٥٥٨ هـ  
ومدحہ . (٤) کما مدح شاور وأشار بشجاعته واخلص لقطمیین وأشار الی  
استنجاهہ بالفرنج لیطرد اسد الدین شیرکوه من البلاد :

---

(١) البیسانی ، ٢٢٠

(٢) المصدر نفسه ، ١٩٦

(٣) ابن میسر ، ١٤٦٢

(٤) البیسانی ، ١٥٦

أنت عليه الحد بالحد ضاربا      بسيف اذا ما اهتر قد بان سكره  
علاكم علا أسكرته بمدامها      نلم يجبه الا قام بالسكر عذره

وزعم في هذه القصيدة ان مجيئ الفرنج لنصر شاور انما هو آية نبوية لانها حققت نفع من  
يخشى منه الضر . (١)

اما شجاع بن شاور فكان له اكبر نصيب من مدح القاضي الفاضل لانه هو  
الذي توسط له لدى ابيه حتى عينه مكان ابن الخلال .

ومن تصدى لرؤية القاضي الفاضل في هذا الدور من حياته لم يكده ينفي عنه  
"الوصولية" فهو ثانوي القيمة ، صغر المكانة نسبيا ، مهمه ان يؤمن وظيفته ويحرص على  
استبقائها ، وليس ثمة من قلق داخلي يعكر عليه هذا الاندفاع في سبيل الفاطمية ورجالاتها ،  
يؤثر الاستنصار بالفرنج في سبيل المناسبات الفردية على القضية التي يمثلها اسد الدين  
شيركوه قائد نورالدين . ولذلك فان الناظر اليه في المرحلة الثانية قد يحبره ماضيه فيتساءل  
هل استمر القاضي الفاضل في هذا المبدأ الوصولي وانحاز الى صلاح الدين لانه وجد فيه  
كسبا اكبر ارا ان الحقيقة بزفت لعينيه فجأة فاذا هو حيث قدرا ان يكون مدفعا باخلاص  
حقيقي . ويخيل اليّ وأنا استعرض حياته في المرحلة الثانية ان صلاح الدين هو الذي  
استكشف القاضي الفاضل . وان الفاضل ايضا وقع على حقيقة الموقف الذي يمثله صلاح الدين  
وقضائر الرجلان على تحقيق غاية كبيرة احسا بها ثم تبيناها رأى العيون وعلا في اخلاص  
منقطع النظر ، كل في ميدانه ، على تحقيقها .

## المرحلة الثانية من حياة القاضي الفاضل

٥٦٤ - ٥٨٦ هـ ( ١١٦٨ - ١١٩٣ م )

### في كنف صلاح الدين

أخذ القاضي الفاضل في مطلع هذا العهد جانب الاتجاه السياسي الجديد الذي كان يرمي إلى القضاء على الفاطميين وعلى مذهبهم وتعاليمهم وآثارهم المكتوبة . وكان تنكره للعهد الماضي ملموسا في عدة صور ، فهو يقر صلاح الدين على إحلال المذهب السني محل الشيعي (١) <sup>وكتبات</sup> وخطب الفاطميين تعرض عليه قبل أن تذهب للحرب حتى ينتقي منها ما يستحق البقاء ، (٢) بل أنه لا يشفع في أي حركة تتور ضد الوضع الجديد ، وحادثة عمارة (٣) مثل بارز على ذلك . فقد كان عمارة من الشعراء الذين عاصروا القاضي الفاضل في أواخر العهد الفاطمي وأول عهد صلاح الدين ، وكان معجبا بالفاضل ، ومدحه بمدائح عدة ، وأثنى على ابن رزيق لآخضاره من القاهرة . إلا أن عمارة ظل متعصبا للفاطميين بعد انتهاء حكمهم ، وكان يسجد لهم علنا ، كما رثى عهدهم ورثاهم بقصيدة طويلة قيل أن صلاح الدين لما وقع عليها تغير عليه ، وقيل أنه استغنى في قتلها في قوله في قصيدة مرمية :

(١) المقرئى : ٢ : ٣٦٦

(٢) أبو شامة : ٢ : ٣٩٦

(٣) عمارة الهمني ، شاعر يعني الأصل - جاء إلى مصر حوالي عام ٥٥٠ هـ ومدح خلفاءها الفاطميين ، اتهم بالاشتراكي مؤامرة مع الشيعة لقلب نظام صلاح الدين فشنق عام ٥٦٩ هـ . ابن خلكان : ٣ : ١٠٧ ، ١١٠ .

وكان مبدأ هذا الدين من رجل سعى فأصبح يدعى سيد الأم

فأننى العلماء بقتله ، وشجعه القاضي الفاضل على ذلك . <sup>فخبرنا</sup> فعلمنا استشاره صلاح الدين في الاكتفاء بضربه قال ، الكلب يسكت ثم ينيح ، قال فيسجن ، قال ، يرجو له الخلاص ، قال فيقتل ، قال الملوك اذا أرادوا شيئا فعلوه ونهض . فأمر بحلبه فلما امسكوه قال ، مروا بي على باب القاضي الفاضل ، فلما رآه مقبلا قام ودخل واغلق الباب ، فقال عماره :

عبد الرحيم قد احتجب ان الخلاص هو العجب (١)

وكان عماره يقول :

نست رافة الدنيا فلا الدهر عاطف علي ولا عبد الرحيم رحيم  
عفا الله عن آرائه كل لئنة كلام العدى فيها علي كلوم  
وسامحه في قطع رزق بفضله وعلت اليه والزمان ندم  
ألاهل له عطف علي فانسني فقبر الي ما اعتدت منه عديم (٢)

واعتمد ان هناك تغييرا أصيلا حدث في نفسه الفاضل ، ويستطيع

المتتبع لخط حياته من بعد ان يلحظ كيف اندفع مع هذا الاخلاص الجديد الى النهاية ، ولم يكن موقفه امعانا في " الوصلية " التي وجدت حثا كسبا ونفرا ،

(١) الصفي ، ٢ : ١٨٠ ، <sup>البيت</sup>

(٢) ابوشامة ، ١ : ٢٢٣



فبشي العهد الصلاحي ، ومن اسباب ذلك في رأيي :

١- ان القاضي الفاضل وان وصل اسبابه بالفاطميين فان العقيدة

الفاطمية لم تعمق في نفسه ، وان انضوا اليهم كان يوجد صراعا مذهبيا في نفسه ، فلما وجد الفرصة سانحة تغلب لديه الميل السني فسانده حتى النهاية ، وربما لم تكن الشواهد على هذا الغرض بيينة واضحة ولكني اؤثر ان ارن في اخلاص القاضي الفاضل ثورة نفسية على ترده السابق وتكثيرا عن خضوعه لظروف البيئة التي عاش فيها .

٢- ان شخصية صلاح الدين هي التي رسمت نقطة التحول في حياته ،

فان اعجابه به وايمانه بغاياته كان كافيا ليدفع به في هذا الطريق على نحو مخلص .

٣- انفق القاضي الفاضل المرحلة الأولى من حياته في جو هابق

بالاضطراب السياسي الداخلي والخارجي ، وشاهد وزراء الفاطميين يتقاتلون على المناصب ويستعينون بأعدائهم الفرنجة للمحاذظة عليها .<sup>(١)</sup> كما شاهد الفرنجة يدخلون البلاد ، يخربونها ويستغلون اموالها ، ولم يفسس والده وهو يتعذب في محنته الناتجة عن ظلم الحكام والتي عجلت بوفاته . ولعل هذه العوامل ولدت في نفسه حقدًا على الفاطميين ووزرائهم المتأخرين الذين اضطران بمدحهم ليصل الى هدنة السدي طالما تمنى تحقيقه ، واستطاع ان يحققه على يد صلاح الدين . فقد وقف الى جانبه

(١) كما فعل شاور حين تضامن مع الفرنج عام ٥٥٩ هـ ليمتص شريكوه من خلفه مد

فوزه ، " ابو شامة " ١٣١٤ هـ .

(٢) ابن الأثير ١١١ هـ ١٤٨ - ١٤٩

منذ البداية يشجعه على ما كان يقوم به من اعمال اصلاحية في مصر ، حتى آن الاوان  
للغضا على الدولة الفاطمية ، فشجعه وهلل له عندما قام بعطه هذا ، وشعر بشي  
من الراحة لان أمنية كبيرة من أمانيه تحققت .

٤- انفتح امامه المجال الأوسع لتحقيق الأمنية الثانية وهي الكبرى  
فقد كان القاضي الفاضل فلسطيني الموطن من عسقلان ، اقتضت أرضه وتشردت  
عائلته بعد ان احتل الفرنج البلاد ، كما قاسى في طفولته من عذاب عدم الاستقرار  
والتشرد اللذين سببهما الصليبيون له ولعائلته . وشاهد الصليبيين في مصر عدة  
مرات حين جاءوا يريدون احتلالها وأرهقوا اهلها بطلباتهم فنقم عليهم ونذر نفسه  
لمقاومتهم ومحاربتهم واستخلاص البلاد منهم . ولم يترك فرصة صغيرة ولا كبيرة تسنح  
له منذ البداية دون ان يتنادى للجهاد ولمطاربة الفرنج ومقاومتهم ويحذر من استفحال  
أمرهم . وقف الى جانب الوزير شاور في حربه الأخيرة لهم مهددا بعض القبائل المتخلفة  
عن الجهاد المقدس بحدثة قائلا " وان سيف الانتقام أقمذ فيكم وتغمدكم عن الجهاد  
فالآن أي العشرتين ( تستقيلون ) وأي العذرين تقولون ، تعودكم عن الجهاد الذي  
فرضه الله على الخلق عموما وأوجبه عليكم خصوصا لأنكم تنزلون بلادا وأعمالا وترتزقون . . .  
ثقلا نبأى حق تستحقونها اذا لم تناضلوا ، وأي فرق بينكم وبين نساكم اذا لم  
تقاتلوا ، ولقد ألحقتم العار بالعشائر وذخرتم في الايام شد الذخائر " . (١)

---

(١) اندر العظيم من ترسل عبد الرحيم ، مخطوط مصور

ولم يترك فرصة نفوته دون التذكير بالجهاد ، فقد ذكره بسجله الخاص بتولية ابن  
مصال نعر الاسكهدرية (١) ولاسد الدين شيركوه (٢) كما ذكره لصالح الدين (٣)  
في سجله وفي اذنه ، فوجد لديه اذنا صافية راح يغذيها بأرائه التي اثمرت وأعطته  
ما اراد وجعلته يرى امنيته الكبرى تتحقق فيدخل القدس وعسقلان وطبرية وهكذا ويشاهد  
بأبي المدن الفلسطينية متحررة . شعر عندئذ بالكثير من الراحة والطمأنينة لأنه  
أدى رسالة كبرى لوطنه .

اذن يمكننا ان نقول : ان أهم عامل في تحول القاضي الفاضل هو انفتاح  
نفسه بشدة على معنى الجهاد وهي الغاية التي كرس لها قلمه ودفع بصالح الدين  
الى اعتناقها ، وهذا وحده كاف للتدليل على ان ما أصاب *نفككيتته* نفسية القاضي الفاضل  
كان أعمق من مجرد الكسب المادي او الجاه في ظل دولة جديدة .

وهكذا كان اتصال القاضي الفاضل بصالح الدين بداية سجل جديد في  
حياته ، فقد أصبح الشخص الثاني في البلاد يشير على السلطان وأولاده فيعملون  
بمشرورته ، ويهتم بمصلحة السلطان وأولاده ويمنحهم ما في وسعه من تدبير وإدارة ،

(١) القلقشندى : ١٠ ، ٣٧٤

(٢) المصدر نفسه : ١٠ ، ٨٤ - ٩٠

(٣) المصدر نفسه : ١٠ ، ٩١

(٤) للقاضي الفاضل رسائل طويلة في هذه المناسبات ، تراجع في صبح الاقشى ٥٠٦٦ - ٥١٠  
وفي مخطوط " من ترسل القاضي الفاضل " ، و " الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم " .

ويعمل بكل اخلاص وتفان حتى بات السلطان يعتمد عليه اعتمادا كبيرا . وتمكن  
بدهائه وحكمته ان ينجي صلاح الدين من الوقوع في أيدي الفرنج عام ٥٧٢ هـ ، ذلك  
ان صلاح الدين قصد مع بعض رجاله الرملة في فلسطين بمحبة القاضي الفاضل ،  
وساروا في منطقة جافة لا ماء فيها ولا دليل ، تغل فيها السلطان وبعض جنوده  
وكادوا يتهيمون ، لولا ان قدر الله ان القاضي الفاضل كان يستظهر باستصحاب  
جماعة من الكتانية والادلاء ، فلما وقعت الواقعة خرج بدوايه وقلمانه وأصحابه  
وتفاته ، وبث اصحابه في تلك الرمال حتى أخذوا خبر السلطان نقصده . وانتفع  
السلطان بالادلاء الذين كلفوا كانوا معه ، ثم فرق القاضي الفاضل ما كان معه من  
الازواد على المسلمين والمنقطعين وجمعهم في خدمة السلطان . اما العسكر الذين  
دخلوا بلاد الفرنج فقد هلك معظمهم (١) ويعقب ابوشامة على دور القاضي الفاضل  
في هذه الحادثة بقوله " وكان الناس في مبدأ توجه السلطان الى الجهاد ودخوله  
ودخول الأجل الفاضل معه الى البلاد ربما تحدثوا وقالوا لو قعد وتخلف لكان أولى به فان  
الحرب ليست من دأبه ثم عرف ان السلامة والبركة والنجاة كانت في استصحابه " . (٢)

ثم شارك السلطان صلاح الدين في رحلته الأولى الى الشام بعد ان  
استتب له الأمر في مصر وشاهد معه فتوحاته داخل سوريا ووقف الى جانبه يشجعه ويكتبه  
البشائر الى ذوي النفوس في البلاد الاسلامية ، واضطر ان يفارقه فترة قصيرة ينم فيها

(١) ابن واصل : ٦١٤٢

(٢) ابوشامة : ٢٧٣٤١

فتوحاته في سوريا ويشرف على العمليات الحربية فيها ، ليقوم هو " القاضي الفاضل " بمراقبة الأعمال الادارية والحربية في مصر ، ويشرف على تجهيز الجيش المصري استعدادا لغزو فلسطين واستردادها من الفرنج . حتى انه حالما طلب السلطان مجيئه اليه عام ٥٨٣ هـ جاء مع جيش مزود برئاسة تقي الدين عمر ، ابن اخي صلاح الدين (١) واستقر في دمشق للاستئناس والاشراف على امورها تاركا صلاح الدين وجيشه واعوانه يقصدون فلسطين لمحاربة الفرنج ، وما ان علم بفتح القدس حتى ذهب اليها ليشرك صلاح الدين وجنوده فرحتهم وليكتب البشائر بذلك الى الخليفة ببغداد .

وكان السلطان يعتمد عليه في اموره الخاصة ويستشير به قبل ان يقدم على أى عمل مهما كان خاصا . فعندما قرر ان يوزع ملكه بين اولاده استشار القاضي الفاضل ، بتولية ابنه العزيز عثمان مصر ، والأفضل دمشق ، والظاهر حلب ، وابن اخيه تقي الدين عمر حماه وبعض ضراحيها ، وأخاه العادل اتابكا للعزيز عثمان مع اعطائه بعض الاقطاعات . فرافقه على ذلك وصحب العزيز عثمان الى مصر عام ٥٨٥ هـ ليساعده في الحكم بها ويشرف على تجهيز الجيش والاسطول ، وتحضير المعدات الحربية وارسالها الى صلاح الدين في عكا . (٢) وكانت " امور المعالك بمصر بحضوره مستتبه ، وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبه ومحبة ، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه دائم الاعتماد والاستناد الى احسانه واركانه ، فان استفده خاف على ما وراءه من الهام ، وان تركه نال وحشة التطرد بالقضايا والأحكام ، وكان يكاتبه بشرح الأحوال

(١) ابو شامة : ٢٠ ، ٥١

(٢) المصدر نفسه : ٢٠ و ١٦٥

يستشيرهم والنجايون<sup>١</sup> مترددون بالمكاتبات والمخاطبات والاستشارة في المهمات . (٢)

وقد لعب في هذه الفترة دورا كبيرا ، اذ كان في مصر موضع السر والخبر ، فهو يتسلم الأخبار من صلاح الدين في عكا ليرسل بها الى حكام المسلمين في بغداد والمغرب واليمن ، ويتسلم اخبار الفرنج في الغرب ليخبر السلطان بها . ويرسل له في الوقت ذاته مخبرا بكل ما يجري في البلاد من أمور وتطورات وما يعد من تجهيزات حربية . ووقف في هذه الفترة وقفه قوية ناضل فيها بقلمه خير تضال فقد شمر بحاجة السلطان الى قوات جديدة وتزويدها واسلحة فراح يرسل في طلبها من حكام المسلمين مستعظفا ومستنجدا ومؤنبا وقت الحاجة ، مذكرا اياهم بضرورة الجهاد لتخليص السهلاء وبواجبهم المقدس ، وبحاجة الاسلام الى توحيد القوى وجزائهم في الآخرة . قال في احدى رسائله " فالبدار الى النجدة البدار ، والمسارعة الى الجنة فان البحار لا تلقى الا بالبحار ، والملوك الكبار لا يقف في وجهها الا الملوك الكبار " . (٢)

وقال في اخرى مستعظفا ومنبها الى خطر الفرنج : " وما بين المسلمين والفرنج الا واحدة كلعج البصر ، ونحن نرصد تلك الواحدة ، ولا نغض عنها عيوننا الواحدة ، فيا جيران بيت الله اسهروا لاستيهامها ، وأتوا البيوت فانتم على ابوابها ، واستنظروا للرب الرحمة فانتم مجرى سحابها ، اين سهام الأشجار التي تكفينا طواق الليل والنهار ،

طوارق

(٢) المصدر السابق : ١٨٢ ، ٢

(٢) القلقشندی : ٢٥ ، ٧ - ٢٦

نحن نعلم ان أقدار الله ستجرى بما وعدته من نصر دينه ، ولكن استعجلوا لنا  
الأقوار<sup>الأيام</sup> فنحن قد خلقنا من عجل وقد أرينا الى جبل من عرفاتكم كذلك الجبل \* . (١)  
وأرسل رسائل عديدة فيها الكثير من التوسل والعتاب والطلب دون ان يجد  
صدى لكلماته في كثير من الأحيان ، فكان يغضب في نفسه ويخبر صديقه العماد  
عابا على هؤلاء الحكام .

طرق جميع الأبواب لتجهيز نجدات الى السلطان ، وتمكن ان  
يرسل له ما أمكنه من مصر من جنود ومعدات ، ولما رأى ان الحالة أصبحت يائسة  
الى حد ما وجه اهتمامه الى السلطان وراح يكتب له الرسائل الواحدة تلو  
الأخرى يثبت عزيمته ، ويشجعه على تحمل الضائقة مذكرا اياه بفتوحاته السابقة  
وانتصاراته ويهدفه الذي بدأه بتخليص البلاد المقدسة من الفرنج ، ويجزائه عند  
الله نتيجة جهاده ، ويذكره ان اذاتوانى اوتخانل ضاعت بجميع جهوده  
سدى ، وعليه ان يستميت او يموت في سبيل الجهاد . وقال له في احداها :  
\* وما تجرد<sup>تجرد</sup> للعدو من الشروع في آلات الحصار لعكا ، وما أرجف به النجدتين  
الفرنجيتين الواصلة والبعيدة ، وافتراق العساكر في هذا الوقت للضرورة ،  
والتماس العسكر الشرقي الدستور للضجر ، وحاجة المولى من الانفاق الى ما لا يسعه  
التدبير ويضيق عنه الامكان ، ومطالبة الغني بالزيادة مع الغنى ، والضعيف بأكثر مما

---

(١) الفاضل من كلم الفاضل ، مخطوط مصور ، ٢٠٣

يحتاج اليه ، ضياع فرصته ، واختلاف رأى بين المشاورين من الجماعة ، وجسود  
الألسنة بالآراء ، وبخل الأيدي بالمعونة ، وانفراد المولى بالتعب ، واشتراك الناس  
في الراحة ، وما ابتلي به المسلمون من مرض اظهروه ليكون لهم عذرا في القعود ،  
وكنته المولى على نفسه لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس ، نهذه الأمور وان  
كانت شديدا وزائدات على العوائد ، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر ، وحسن  
الصبر ليشعره ان صبره يعقبه النصر ، وحسبته يعقبها الأجر . ولولم ير الله  
تعالى ان قوة مولانا يياشر النصر ويحضرها ، فليس الا التجرد للدعاء ، والتجسد  
للغضا . فلا بد من قدرة مفعول ودعاء مقبول ومن الأمثال المنظومة

نحن الذين اذا علوا لم يبطروا

يوم الهياج وان علوا لم يضجروا

ومعاز الله ان يفتح علينا البلاد ثم يغلقها ، وان يسلم على يميننا القدس  
ثم ينصره . ثم معاذ الله ان نغلب على النصر ، ثم معاذ الله ان نغلب على الصبر .  
وانا كان ما يقدم الله اليه الماليك قبل المولى لا بد منه وهو لقا الله سبحانه ،  
فلا نلقاه والحجة لنا ، خير من ان نلقاه والحجة علينا ، فلا تعظم هذه الفتوق  
على مولانا فتبهر صبره وتعلم صدره ، فلا تهونوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون  
والله معكم . وهذا على دين ما غلب بكثرة ، ولا نصر بشرة ، انما اختار الله تعالى  
له أرباب نيات وذوى قلوب معه وحالات ، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف .



لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ( واشتدى أزمة تنفرجي ) والخمرات تذهب  
ثم لا تجي ، والله تعالى يسمع الأذن ما يسر القلب ، ويصرف عن الإسلام وأهله  
فاشية هذا الكرب ونستغفر الله العظيم فانه ما ابتلى الا بذنب . (١)

طال حصار عكا وكاد السلطان بيأس ويتجه الى الترهده فأرسل  
الى وزيره القاضي الفاضل مخبرا بما كان يجول في خاطره ، فحاول ان يثنيه عن  
عزمه وأرسل قائلا " وقفة فدام قلعة قد امتنعت بأمة قد اجتمعت بقبالة اعداء  
قد ارتفعت ، واستغزلا لهم رافعين ، وظلوع أهل الإسلام اليها هاجمين خير من  
الف سنة رباط في الكعبة " . (٢) وكتب له في مناسبة أخرى " فالشده تذهب  
ويبقى ذكرها ، والأزمة تنفرج ويبقى اجرها ، وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا  
فلا تحدث له ساعات الامتحان ضجرا . والخطاة والملوك يستحسن بيبي حاتم  
ومولانا ابقاء الله وخذ سلطانه يحفظهما .

شربنا بكأس الفقر يوما وبالغنى  
وما منهما الا سقانا به الدهر  
فما زادنا بغيا على ذي قرابة  
غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر " (٣)

(١) ابوشامة : ١٦٦ ، ٢ - ١٦٧

(٢) الفاضل من كلام الفاضل

(٣) ابوشامة : ١٦٨ ، ٢

وعندما اشتد أمر الفرنج على المسلمين في مرج عكا ، أرسل الى  
العماد قائلاً " وعرفت ما جرى على قضيته فسيحت الله تعالى فان من عجائب  
قدرته سلامة سيدنا على ضعف حركته . والأمر كان عظيماً والمدنوع أعظم والسلامة  
كانت قريبة الا ان نقول ولكن الله سلم والسلطان أعزه الله اذا سلم فكل الناس  
قد سلموا ، واذا وجد وقد عدم الناس كلهم فقد وجدوا وما عدوا ، وكل جوهر بالاضافة  
اليه عرض وهو جوهر بالحقيقة من عنه من كل جوهر عرض " (١) كما توصل به  
اخلاصه للبلاد واستماتته في الدفاع عنها ان ثنى السلطان عن الذهاب الى مكة  
للقيام بفريضة الحج قائلاً " ان الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ، ولا سلوا عن القدس ،  
ولا وثق بعهدهم في الصلح فلا يؤمن مع بقا الفرنج على حالهم ، وانفراق عسكرنا ،  
وسفر سلاطيننا سفراً مقدراً معلوما مدة الغيبة فيه ان يسروا ليلة فيصبحوا القدس على  
غفلة ، فيدخلوا اليه والعيان بالذم . ويفرط من يد الاسلام ، ويصير الحج كبيرة من  
الكبائر التي لا تغفر ، ومن العشرات التي لا تقال " (٢)

أثر القاضي الفاضل بقله ولسانه كثيراً على صلاح الدين الذي حفظ  
له جميله واعترف بفضلله عندما قال " ما فتحت البلاد بالمساكر ، انا فتحتها بقلم  
القاضي الفاضل " (٣) وكان في الوقت ذاته يرفع حقوق القاضي الفاضل ويهتم  
بأمره ، ويجله ، ويكره الابتعاد عنه حتى انه كتب الى احد نوابه عندما طلب منه القاضي الفاضل

(١) المصدر السابق : ٢١ ، ١٤٧

(٢) المصدر نفسه ، ٢٠٥

(٣) الحنبلي : ٤ ، ٣٢٧ ؛ سبط ابن الجوزي : ٨ ، ٣٠٤

اذنا للحج قوله " وصلني كتاب القاضي الفاضل ، وهو يذكر انه مصم على الحج ،  
الله يجعله مباركا مبسوتا ، ولكن لا أنسخ له الا بعد سنتين ، واحدة انه لا  
يركب بحرا يسير من العسكر الى أيلة ، ومنه يتوجه ويقوم العسكر على أيلة ليلة  
وعلى ام ليلة ودون ام ليلة وقاطع ام ليلة ، فيكون هو قد بعد وما يبقى عليه خوف  
ان شاء الله تعالى . وتانيه ، تأخذ بيده وتحلفه برأسي انه لا يجاور ، وثالثه  
تعطيه من مال الجوالي ثلاثة الف دينار ، وتقول له لا بد ان تخرج هذا عني لا عنك  
بمكة والمدينة وفي اهلها ، هذا أمر لا بد منه ، فان الناس لا بد لهم في الطلب ولا  
بد لك من العطا ، وان قال ان الشيء قليل فانت تقرضني مثل هذا المبلغ من مالك  
وتعطيه اياه فلا بد ، والا فلا اذن له في الراجح الى الحج الا على هذه الشروط التي  
قد اشترطتها ، واما مجيئه فيجيء الى الشام ، وأنا ما بقي لنا دار الا هي حتى يقضي  
الله بيننا وبين الفرنج وهو خير الحاكمين " . (١)

بقي القاضي الفاضل ملازما لصالح الدين حتى قضى السلطان نجه ،  
فتولى نفسه وكذا x وكنه من ماله ودفن معه سيفه قائلا " هذا يتركأ عليه الى الجلاء " . (٢)  
ثم انتقل الى مصر ليبيكه بدموع حارة منتظرا ومتمنيا موعد التفاه به في الآخرة .

---

(١) ابوشامة : ٢ ، ٨٧

(٢) المصدر نفسه ٢ ، ٢١٥

المرحلة الثالثة من حياة القاضي الفاضل

" ٥٨١ هـ - ٥٩٦ هـ " ( ١١٩٣ - ١١٩٩ م )

ظل القاضي الفاضل محافظاً على مكانته المعنوية في البلاد بعد وفاة

- صلاح الدين ، فاهتم العزيز عثمان ملك مصر بأمره وأكرمه ، واتخذ منه ناصحاً ومشيراً . (١)  
إلا أن القاضي الفاضل لم يظهر تهافتاً واندفاعاً على التدخل في أمور الدولة ، فقد آثر  
الانطواء ، والانعزال عن العالم السياسي وتكريس السنوات الباقية من حياته لدرسته  
الفاضلية ، ولا شك أن اعتزاله السياسة في هذه الفترة يعود إلى أسباب عدة :

١- ذلك لأنه فقد بموت صلاح الدين الرجل الذي وضع فيه كل آماله

وتوصل في عهده إلى مركز عال لم يكن يحلم بالوصول إليه في عهد غيره ، وكرس له  
قسماً كبيراً من حياته في نصحه وإرشاده ، ووجهه كل ما في وسعه من محبة وإخلاص ، حتى  
أصبح لا يطيق الابتعاد عنه في حياته ، فكيف بعد موته ، وانتقاده لصلاح الدين وبأسه  
من الحياة بعد موته ظاهران في عدد من رسائله التي كان يذكر فيها انتظاره لأيام  
اللقاء بصلاح الدين في الآخرة " احتجت إلى من يؤديني لربي ، ويضربني  
على قلبي ، ويعرفني أن ميني رحمه الله ما ذهب لأبقي ، ولا ذكر لأتسى ،

---

(١) المقرئى ٢ : ٢٨٣

وان أهلي الذين مضوا سلفا قصد السبيل ، وفرظا . . . التأميل أنا وراهم بالدفتر ،  
ووارد ما وردوا على الصغر ان شاء الله الأعلى الكدر ، وان لقاءهم أنس تمرن به  
المغية ، وراحة قد كادت تكون من الأمنية ، فاني فقدت منهم ومن السلطان من  
يستحي من الحياة من بعده ، ومن يسترحش من الأحياء لفقدته . (١) ولم يترك  
مناسبة تمردون ذكر صلاح الدين ، فقد كان إذا رأى معارف تذكره وإذا رأس الناس  
من حوله وردت صورته لخاطره ، فيزداد ياسا وقنوطا ، ذكر للعماد في إحدى رسائله  
قوله " ولسلوة الايام هو موعد الخسر ، وان ليلة لقاءه هي ليلة القدر ، ولقد حيي  
وطابت الحياة ، وتوفاه الله نطابت الرفاة ، وان امرأ يحسن به الضدان وهما ما هما ،  
ومولى يطيب به الطوران والحياة بالطيب اولاهما ، لمعدورة فيه القلوب اذا خضعت  
تحت وطأة الخفقان ، والجفون اذا أمرت عليها مؤرة الهملان . (٢)

٢- لم يعد المحرك السياسي للدولة بعد وفاة صاحبه ، فقد

تقسمت الدولة ، وتقسيم العمل السدي كان يقوم به زمن صلاح الدين بين اشخاص  
عديدين من بينهم اشخاص لم يكن راضيا عن تصرفاتهم زمن تنفيذ كصفي الدين ابن  
شكر (٣) الذي كان يقول عنه " وأما ابن شكر فهو الذي لا يشكر ، واذا ذكرت  
الاشياء فانه الشيء الذي لا يذكر . (٤) ضيا الدين ابن الاثير (٥)

(١) الفاضل من كلام الفاضل

(٢) المصدر نفسه ٨٧

(٣) صفي الدين ابن شكر ، وزير للملك المعادل ابي بكر ، ثم غضب عليه وهزه سنة ٦٠٩ هـ .  
توفي عام ٦٢٨ هـ . " الفهرستي ٢٤ ، ٤٣٢ - ٤٣٣ " .

(٤) الفاضل من كلام الفاضل

(٥) ابو الفتح نصر الله ، من اهالي جزيرة ابن عمر ، اقام في الموصل مدة ثم اتصل بصلاح  
الدين واقام عنده ، ثم اقام عند ابنه الافضل . توفي عام ٦٣٧ . " طاش كبرى زاده ١٤ ص ٢٧٩

الذي حاول ان يبعد الأفضل حاكم دمشق عن اصحاب أبيه \* (١) فمعب عليه ان تنخفض مرتبته بعد علوها وآثر الابتعاد عن الجوالذي جرد فيه من نفوذ وسلطانه ، فراح يتحسر على مكانته السابقة بقوله " وقد تبرمت بالحياة ، وبعد ان كنت ممن اخذمه بمكان العيين صرت بمكان القذاة ، والأعصار اكثرها الاكدار الا ان اشدها مؤنة ما كان في اواخر المدد حيث يكون المرء في اواخر الجلد \* (٢) وقوله " ونتنح من الدهر بعد فقد من كتابه عليه نستطيل ويده من صروفه نستديل ، بهذا العيش المرقع ، الذي هو كالظهر المرقع ، فان المسافة بيننا وبينه لا يطول ارتحال الأنفاس في قطعها بل لقاؤه أقرب اليانا من رجوعها \* (٣) وكان في بدء هذه الفترة يحاول ان يشير على ابنا صلاح الدين ، الا انه ما ليث ان " تنزه عن ملابسة الدولة ومخالطة اهلها \* لما رأى من اختلال الأحوال (٤)

٣- تبدد بوفاة صلاح الدين حلم كبير كرس القاضي الفاضل له قسط كبيراً من حياته ، فقد تقسمت البلاد التي طالما سعى الى توحيدها وتقويتها بين ابنا صلاح الدين راحوا يتنافسون عليها ويتشاجرون مندفعين بأنانيتهم ومغفلين أمر العدو والرايض على حدودهم ، وهو الفرنج . ولم يدرك أخطار قسمة المملكة بين ابنا صلاح الدين الا بعد ان حدثت فأخذ يدعو للتحالف والتآزر ويحاول التقريب بين الأخوة ، ولم يترك مناسبة تمر دون ان يذكرهم بضرورة توحيد الصف ،

(١) ابوشامة : ٢٢٨ ، ٢

(٢) الفاضل من كلام الفاضل

(٣) ابوالفدا : ٨١ ، ٢

(٤) المغريزي : السلوك ، ١ ، ١٤٦

فكتب للملك الظاهر ابن صلاح الدين ضمن رسالة عزاء فيها بوالده قوله " وأما  
لائح الأمر فانه ان وقع اتفاق فما عدمتم الا شخصه الكريم ، وان كان غير ذلك فالمصائب  
المستقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم " . (١) كما كتب الى احدهم بقوله  
" والبيت الكريم انا في ولائه وخدمته كما قبل :

ان قلبي لكم لكالكبد الحرى      وقلبي لغيركم كالقلوب

يسرني ان يمد الله ظلهم ، وان يجمع شملهم ، كما يسوئني ان تختلف آراءهم ولا تنتظم  
أهواؤهم " . (٢) ولعب دورا في الصلح بين العزيز عثمان ملك مصر ، والأفضل ملك  
الشام ، ذلك ان العزيز قصد الشام لاحتلالها ، الا انه اضطر ان يعود الى مصر بعد  
وصوله الى ابواب الشام بسبب اضطراب بعض العسكر الأسيدي عليه ، فتبعه الأفضل  
والعادل ، أخى صلاح الدين الى بلبيس ، والأفضل مصر على دخول القاهرة .  
فأرسل العادل الى القاضي الفاضل ليصلح بين الأخوين وكان قد اعتزل عن التدخل  
في أمورهم لما رأى من فساد احوالهم . فسار الى الملك العادل واجتمع به  
وأصلحا بين الأخوين " . (٣) ثم اعتزل التدخل في امورهم نهائيا ، حتى انه عندما  
اختلف الأمراء الصلاحية والأسيدي بخصوص اتابكية بها الدين قراقوش " عام ٥٩٥ هـ .  
على الملك المنصور ناصر الدين ابن العزيز بعد وفاة والده ، فصدرا القاضي الفاضل

(١) ابن خلكان : ٦ ، ٢٠٤

(٢) النويرى : ٨ ، ٨

(٣) ابوالفدا : ٣٠ ، ٩١

ليأخذوا رأيه فامتنع عن المشورة عليهم ، فتركوه (١) وشاهد في هذه الفترة الفرنج  
يغيرون على البلاد محاولين استرجاع اقسام منها ، فازداد خوفا من عجزه تبديد ما  
قضى حياته في بناؤه مع صديقه صلاح الدين ، وهو استعادة البلاد من أيدي الصليبيين ،  
ولم يجد القوة التي وجدها زمن صلاح الدين والتي تمكنه من التغلب على الفرنج ،  
ورأى بعض المدن تقع ثانية في أيدي الفرنج فراح يشد من أزر العادل ابي بكره  
أخي صلاح الدين عليه يقف وثقات قوية كأخيه فكتب له في احدى الرسائل \* وما تجد  
من وصول العدو للعين الى جانب بيروت وخطرها وخطر البلاد ما أذهل كل  
مرضة وأوقع في ضائقة تنفق الأثكار فيها من سعة ، وللإسلام اليوم قدم وان زلت زل  
رهمة وان ملت فان النصر منه مل . وتلك القدم القدم العادلة ، وتلك الهمة  
الهمة المسابقة السيفية فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد ودقوا ذلك المهادر ،  
واسهروا في الله ، فليست بجيلة بليلة رقاد ، ولا ينظرني حديث زيد ولا عمرو ، ولا  
ان فلانا نفع ولا ضر ، ولا ان من الجماعة من جاء ولا ان فيهم من مر ~~المعلم~~ انظروا  
الى انكم الاسلام كله قد برز الى الشرك كله ، وانكم ظل الله ، فان صمتم تلك النسبة فان  
الله لا تأسخ لظله . واصبروا ان الله مع الصابرين ولا تهونوا ، وان ذهب الناصر  
فان الله خير الناصرين . فما هي الا غمرة وتنجلي ، وهيعة وتنفضي ، وليلة وتصبح ،  
وتجارة وتربح . (٢) لكنه شاهد بعض المدن تسقط ثانية في أيدي الفرنج ،  
فراح يتحسر على فرط العقد الذي جمعه مع صلاح الدين ، ويزيد يأسا وانعزالا .

(١) المقرئى ، السلوك : ١ و ١٤٦

(٢) ابوشامة : ٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣



٤- كان للأمراض التي تراكمت على القاضي الفاضل أثر في ابتعاده

عن الجوالسياسي ، فقد كان ضعيف البنية كثير المرض ، وما كان يؤخره عن  
الاشتراك في بعض الغزوات عندما كان صلاح الدين حيا ، وفي رسائله كثير من الاشارة  
الى مرضه وضعفه اللذين ازدادا بعد وفاة صلاح الدين . ذكرني احداها لصديقه  
العماد الاصبهاني قوله \* سيدنا يعلم كيف حال الكبير اذا فقد الصغير ، والضعيف  
المتناقل اذا نودي للنفير ، ما كاني عرفت الايام الا في هذه الايام ، ولا كان الدنيا  
ليستها الا على ان لا يخلعني الى الحماق . فقد توقعت امر الله ان يطرقني بيانا وانفد  
وانا نائم ، ارضحى وأنا هائم ( وأحدث ) في ضم رجلي واستوحشتني الشفص من  
ظلي ، وما اخلو في كتب سيدنا من فائدة وهايدة ، وموعظة وموظة \* . (١)

كما كتب اليه في احدى رسائله يصف حاله الجسمانية قائلا :

\* وأصدرت هذه الخدمة ورجلاى قد عاد النقرس الى تفبيدها وتصغيرها بالاضخة  
وتسويدهما ، ورجبني طريح ، وما في صحيح الاسمي فانه صحيح ، واذا خلوت الى  
شيطان المرض اصيح \* . (٢) وكتب له في أخرى قائلا \* وأما احوالي في جسمي فلا

تسأل عن تداعي البنية ، والمفاصل مذهبة ، والاسنان مضعدة ، والنقرس يغلي ،

وزيادة كالنفص زيادة العصا في ظلي \* . (٣) ووصف اوجاعه في آخر حياته للعماد بقوله :

(١) الفاضل من كلام الفاضل .

(٢) المصدر نفسه غير مرقم .

(٣) المصدر نفسه

وأخلاق الغلمان وما ادراك ما هيه ، نار حامية ، وقد صرت أرى الصبر على  
الضرورة أولى من الابتلاء بهم في الخدمة ، فأجوع ولا أقول اطعموني ، واظماً ولا  
أقول اسقوني ، وألقيت بيدي وقلت مروا ، ومددت رجلي وقلت جروا . (١)

وتقدّم <sup>رقده</sup> توفي القاضي الفاضل في السادس من ربيع الآخر الأول عام خمس مئة  
وست وتسعين (٢) . قال العماد الاصفهاني في هذه السنة : تمت الزينة الكبرى  
والبلية العظمى وفجيعه أهل الفضل بالدين والدنيا ، وذلك بانتقال القاضي الفاضل  
من دار الفناء الى دار البقاء في داره بالقاهرة . وذكر في وفاته انه صلى ليلته  
العشاء في مدرسته وجلس مع النقيه ابن سلامه مدرستها وتحدث معه ما شاء  
وشوهد من كل ليلة أبش وأبسم وأهش ، وقد طابت المحاضرة وطابت المسامحة  
وانفصل الى منزله صحيح البدن نصيح اللسان ، وقال لخلامه ، رتب حوائج الحمام  
وعرفني حين أقضي مني المنام فوفاه سحر اللاعلام فما اكثر بصوت الغلام  
ولم يدر ان كلم الحمام حصى من الكلام وان وثوقه بطهارته من الكوثرافناء عن الحمام ،  
فبادر اليه ولده فألقاه وهو ساكت باهت ، فعرف ان القدر له باغت قلبه يومه  
لا يسمع له الا انين خفي علم منه انه بعهد الله وفي ثم قضى سعيداً . (٣)

وذكر ان القاضي الفاضل لما سمع ان العادل أخذ الديار المصرية  
دعا على نفسه بالموت خشية ان يستدعيه وزيرها صفي الدين ابن شكر اريجى في حقه  
اهانة ، وكانت بينهما عداوة . فأصبح ميتاً . وقيل ان العادل لما دخل القاهرة زار قبره . (٤)

(١) المصدر المطابق نفسه

(٢) ابوشامة ج ٢ ، ٢٤١

(٣) المصدر نفسه ، ٣٤١

(٤) ابوشامة ج ٢ ، ٢٤٤

الكتاب الثاني

-----

شخصية الفاضل

-----

### صورته الجسمانية

حفظت لنا المصادر بعض الروايات الهامة التي يمكن ان نتصور منها

شكل القاضي الفاضل عامة :

قال الأشعد بن ماتي : " كان القاضي الفاضل ذمهم الخلقه ،

وكان له حذبة ظاهرة خلف ظهره يسرها بالطيلسان حتى لا تظهر للناس " (١)

وكان ينشد في نفسه :

ما كان يكمل حرًا ذا الحمام حتى أزداد قبة

فكأنني فيه خسرو فُ شوا ومن فوقي مكسبة (٢)

وروى موفق الدين البغدادي عنه عندما زاره في فلسطين قوله

" دخلنا على القاضي الفاضل فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويصلي

على اثنين ووجهه وشفته تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في اخراج الكلام ، وكان

يكتب بجملة اعضائه ، وسألني القاضي الفاضل عن قوله سبحانه وتعالى حتى اذا

جاها وفتحت لهم ابوابها قال لهم خزنتها ، اين جواب اذا ، وأين جواب لو اني

قوله تعالى ، ولو ان قرآنا سميت به الجبال . . . ومن مسائل كثيرة ، ومع هذا فلا

يقطع الكتابة والاملاء " . (٣)

(١) ابن اياس : ١ ، ٧٥

(٢) الصندي : ٢١ ، ٢٢٥

(٣) ابن ابي اصيبعة : ٢١ ، ٢٥٥

وقد أثر شكله في نفسه فكان إذا سلم عليه من لا يعرفه  
آذاه وإذا التقاه إنسان ولم يسلم عليه اعفاه " (١) ومن النكت اللطيفة عنه  
قول ابن لماني " دخلت يوماً على القاضي الفاضل فوجدت بين يديه أترجة كبيرة  
مفرطة في الضخامة وهي من الأترج الشمسي . فلما جلست حدثت اليها واتفق  
فكر وزهول فأخذ رحمه الله يتبادر على نفسه وقال يا مولاي الأسعد ما هذه  
الفكرة الطويلة ، ما أنت مفكر إلا في خلق هذه الأترجة وما فيها من التكتيل والتعوج وتعجب  
من المناسبة لها وكيف اتفق الجمع بيننا وبينها ، فدهشت وانخلع قلبي مني خوفاً  
ثم رجعت الي فقلت لا والله بل أفكرني معنى وقع لي فيها . وسرأن نظمت :

للحسن بل لله أترجة      قد أذكرتنا بجنان النعيم  
كأنها قد جمعت نفسها      من هيئة الفاضل عبد الرحيم

فلما سمع ذلك أعجبه وزال ما عنده مما كان قد توهمه مني " . (٢) قال الأسعد  
بن ماتي : ثم اني ذكرت هذه الواقعة لبعض اصحابي فقال لي احمد الله ان  
اشدته ذلك من لفظك ولم تكبهما له فرما تصفحت عليه في اللفظة فيقرؤها من  
هيئة الفاضل عبد الرحيم فيزداد حنقا من ذلك " . (٣)

---

(١) ابن اياس ١ ، ٧٥

(٢) الصندي ٢ ، ٢٢٥ - ٢٢٦ ، ابن اياس ١ - ٧٥

(٣) ابن اياس ١ ، ٧٥

وقد كان شكله موضع تندر بعض الطرفاء مثل ركن الدين الهراني (١) الذي كان يتندر به دون ان يتمكن من التصريح باسمه لعلو مكانته ، فكتب الى احد اصدقائه ذاكرا حمام الفيوم بقوله " فلم اشعر الا والحائط الشمالي قد انشق ، وخرج منه شخص عجيب الصورة ليس له رأس ولا رقبة البتة ، وانما وجهه في صدره ولحيته في بطنه مثل بعض الناس " . (٢) يقصد القاضي الفاضل .

#### العناصر الهامة في شخصيته

امتاز القاضي الفاضل بشخصية قوية وذكا حاد مكّنه من التوصل الى مرتبة عالية في الدولة ، وقد اجتمعت اليه خلال كدلت له النجاح في الحياة السياسية في العصر المملحي ، منها لباقته ، وتصرفه باتزان وحكمة مكنته من تخليص السلطان من عدة مآزق ، ذكر من بينها ان الحمل تأخرت مدة على صلاح الدين في الشام فطلب من كاتبه العماد الاصفهاني ان يكتب الى اخيه العادل يستحثه على انفاذها حتى قال : يسير لنا الحمل من مالنا او من ماله . فلما وصل اليه ، ووقف على هذا الفصل شق عليه ، وكتب الى القاضي الفاضل يشكو من السلطان من اجل ذلك ، فكتب اليه القاضي الفاضل جوابه ، وفي جملة ، وأما ما ذكره المولى من قوله : يسير لنا الحمل من مالنا او من ماله فتلك لفظة ما المقصود فيها

(١) احد شعراء العصر ، قدم من المغرب وعاش في مصر \*الصفدي ٤ ، ٣٨٦ - ٣٨٧ \*

(٢) المصدر نفسه ٤ ، ٣٨٦ - ٣٨٧

من الملك النجمه ، وانما المقصود من الكاتب السجعة . وكم من لفظة نظة ، وكلمة  
فيها غلظة صيرت عبي الاقلام فسدت خلل الكلام ، وعلى الملوك الضمان في  
هذه النكتة ، وقد فات لسان القلم منها أي سكتة . (١)

وفي عام ٥٨٤ هـ ثار اثنا عشر رجلا في القاهرة ونادوا يا آل علي ،  
يا آل علي ، ولكن محاولتهم فشلت ، وكتب السلطان بذلك وهو محاصر عند ،  
وكان على باب جمعة من ونود المصريين فاعلم فاهمه الأمر وأزعجه وتبرم بمن  
على بابهم ودخل عليه القاضي الفاضل فأخبره بذلك ، فقال يجب عليك  
ان تشكر الله على هذه النعمة ، فقد عرفت بهذا الأمر طاعة رعيتك ، اليس لم يلب  
دعوتهم احد ، وان لم يكن لهم من يمد لهم ، فطب بذلك نفسا وتحقق زيادة منزلتك عند  
الله تعالى ، فقال له السلطان ، كان الملوك قبلي تخانهم الرعية وتهرب منهم ،  
وتنوقع سطوتهم ، ورعيتنا قد تكاثروا علينا واضجرونا وملونا ، واذا ركبنا تعاورونا بالنقص .  
فقال له القاضي الفاضل ، أنت اولى الناس بشكر هذه النعمة ، كان بمصر بالأمس صاحب  
القصر واشياعه ، وخدمه واتباعه ، وامراءه وخواصه ، وما منهم احد الا ويرتع الخلق في  
رياض انعامه ، وكان بالشام والبلاد الشرقية في كل بلد وال وماحب ، له على اهله  
نعم ، وفي كل قطر ملك يلوذ اهل ذلك القطر به ، وبذا اصبحنا اليوم سلطان الجميع ،  
وقد رد الله سبحانه آمال الكمل اليك ، وجمع المتفرقين على بابك . فلا يجدون  
لهم يعد الله - الا وجودك وكرمك . فاجروا علينا السلطان بالدموع وشكر الله  
على احسانه اليه وآلى الا يرد فاصدا ، ولا يخيب واندا . (٢)

(١) ابن تغريبردي : ١٦١ - ١٦٢

(٢) ابن راصل : ٢٧٧ ، ٢

وكان واسطة الناس لدى السلطان يتشفع دائما بهم لديه ويطلبه  
بالاهتمام بأمرهم وساعدتهم واعطائهم حقوقهم ، ويحذره من مغبة الاختلال بأمرهم .  
ذكر في إحدى رسائله إلى العماد قوله \* بلغني انه استدعي بعمل أوراق برواتب  
الناس التي يأخذها الفقير مغرونا والغني تشريفا ، فذروا الناس يرزق الله  
بعضهم من بعض ودعوا لهم ما استكدي وخذوا ما ( استفيض ) واعطوهم من  
قليل ما عندكم يعظكم الله من كثير ما عنده . واعلموا ان العطايا تجارة مريحة ،  
واني لا أملك فأتاجر الله بالصدقة . وقد قال رسول الله ( صلعم ) لعائشة لا توهي فيوهي  
الله عليك ، وطالما خذل الملوك الأولون بالشفح ونصر سلطاننا بالكرم \* وطالما أعطى  
دينارا فأعطاه الله قنظارا ، ومنح فدنا ففتح الله علينا مدنا بحاله الله في هذا  
الذكر ، وأجد يا كاتب من طريق الفكرة ، وأزحمه بمضايك المهمات التي تحطمه ،  
واكبده بيرة اللسان التي تخطمه ، واطوه كما طويت صحف ابراهيم وموسى \* . (١)

وكل ذلك اكسبه المحبة وكثر عارفي فضله والمتحرمين بحماه . وزاده  
امعانا في هذه الناحية انه فلما كان يسمح للبغيضا الفرديية بأن توجه احكامه على  
الناس او تسيطر على علاقته بهم ، ونصته مع القاضي كمال الدين الشهرزوري توضح  
ذلك ، فقد كان القاضي كمال الدين \* متحكما زمن نور الدين ، ولما تلك صلاح  
الدين كتبت قصص كثيرة فيه ونسب إلى أمور . وفيه ان القاضي الفاضل كان يكره  
كمال الدين فأدى القصص إلى السلطان في كمال الدين في اثنا الطريق فلم يصل السلطان  
إلى الكسرة الا وقد حصل عنده من كمال الدين شيء مع ما قيل انه كان لا يجهنم أيام نور الدين .



فاجتمع اصحاب كمال الدين وأشاروا عليه بالخروج لتلقي السلطان فأبى جريا على ما ألفه في ايام نورالدين من تردد الناس اليه وعدم تردده الى الناس . فلما كان ليلة دخول السلطان دمشق تحزب اصحاب كمال الدين عليه وقالوا ، هذا السلطان من الاصل لا يحبك ومدبر دولته القاضي الفاضل كذلك ، واعد اژوك قد تحزبوا عليك ، وما كنت تعرفه من الرفعة قد زال بزوال دولة نورالدين والسلطان بكرة قد يدخل البلد ، وقد دخل القاضي الفاضل البلد الليلة ونرى ان تمشي اليه ، فأظهر تألما كثيرا لذلك فألزم وربما حلف عليه فمضى ومعه اثنان احدهما ولده والاخر بعض من اشار عليه ، وفي زهنة انه من حين يقبل على دار الفاضل يخرج لتلقيه فقمعد على الباب زمانا طويلا ليؤذن له ، فأما الرجل الذي كان معه وأشار عليه فانه حرب حيا من القاضي كمال الدين ، وصار كمال الدين وولده فخرج الطواشي وذكر ان الفاضل نائم فقام كمال الدين وحده الى داره في اسوأ حال . وسرى القاضي الفاضل في اثناء الليل لتلقي صلاح الدين وجاراه الكلام حتى انتهى الى ذكر كمال الدين فقال ، يا اخوند هذا رجل معظم في العلم والسؤدد ، وافعال نورالدين عند الناس كهد مسددة وكان منها تعظيم هذا الرجل ، وغالبا ما ينسب اليه كذب ، وأما ما ذكر من كثرة دخله فهو وان كثر دون كثير من امراء المملكة ولعله أحق ببيت المال وامواله من كثير منهم ، فالسدى اراه تعظيمه وكذا وكذا ، وحده الى البلد مصيحا قبل دخول صلاح الدين وتوجه الى دار كمال الدين فجلس على الباب وطلب الاذن ، فلما دخل الخادم ليستأذن كمال الدين عليه مضى ولم يلبث علما منه بأن كمال الدين سيجازيه على عدم خروجه له ولا

يخرج لقوة نفس كمال الدين ، فكان كذلك ، دخل الخادم الى كتاب الدين  
فاعتل لعله ولم يخرج فخرج الخادم فلم يجد الفاضل ثم لما عبر السلطان  
البلد وبدأ بالجامع فصلى فيه فعيل ان الفاضل أخذه من الجامع وجاء به الى دار  
كمال الدين وصارت له اليد البيضاء عند كمال الدين بهذه الواقعة وتصادفنا . (١)

ومع ما كان لديه من رفق في الشؤون العامة ومن تسامح في الهبات  
فقد كان ذا هيبة بالغة في النفوس ، حتى كانت هيئته هذه مشهورة معروفة ، وحتى  
ان اصدقاءه اقرب الناس اليه ، لم يكونوا يجروون ان يعيدوا عليه السؤال اذا  
رأوا منه اعراضا ، (٢) وروى ان العزيز عثمان حاكم مصر ، أصيب بضائقة مالية  
فألج عليه اصحابه في الافتراض من القاضي الفاضل ، فاستدعاه الى مجلسه ، بمنظرة  
من دار الوزارة مشرفة على الطريق ، ولما عين القاضي الفاضل استحيا منه ، ورضى الى  
دار الحرم احتراماً له من مخاطبته في القرض ، ولم يزل الامراء به حتى أخرجوه من  
دار الحرم . (٣) وقد ذكر الشعراء هذه الهيبة ، فقال ابن سناء الملك :

---

(١) السبكي : ٤ ، ٧٦٤

(٢) ابن سناء الملك : ٢٢٩ - ٢٣٠

(٣) المقرئى - السلوك ١٤ ، ١٢٨

أخذت بمجلسه المهابة حينها فنرى البرى' لديه مثل الجاني (١)

ورافقت هذه الهيبة فيه خلتان بارزتان : حدة تعتريه أحيانا

فتصرفه عن التساهل حين يكون التساهل ضارا \* ونصته مع أخيه - وهي التهجرت  
في صفحات سابقة تصور هذه الصلابة الحادة \* . وميل الى الجدد يخيل الى الناس  
انه لا يعرف معه معنى المزاج والدعابة . ومن امارات حدته هذه الرسالة التي كتبها  
للسلطان في وفاة عضد الدين بن رئيس الروسا\* وزير الخليفة ببغداد \* . وما ريك  
بظلام للعبيد ، فقد كان عنا الله عنه قتل ولدى الوزير بن هبيرة وأزهق انفسهما  
وجماعة لا تحصى .

من ذا يسر بذنبه      والدهر لا يغتر به

وهذا البيت، بيت ابن المسلمة، عريق في القتل وجدده هو المقتول  
بيد البساسيري في وقت اخراج الخليفة القائم في أيام الملقب بالسنتنصر بمصر ،  
فهو من ذرية لم تنزل قاتلة مقتولة ، وما زالت السيوف عليها ومنها مسلوقة ، فهم  
في هذه الحادثة السمعة المصمة كما قال ابن دريد ( ابن الموت الا الصم )  
والأبيات المولى يحفظها وهي في الحماسة وقد ختمت له العادة بما ختمت به له  
الشهادة لا سيما وهو خارج من بيته الى بيت الله . قال الله سبحانه ، ومن يخرج  
من بيته مهاجرا الى اله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله .

(١) ابن سناء الملك ، ٧٧٩

ان المساءة قد تسروريما      كان السرور بما كرهت جديرا  
ان الوزير وزير آل محمد      اودى فمن يشناك كان وزيرا

وهذان البيتان قبلا في أبي سلمة الخلال أول وزير لبني العباس .  
وقال الفاضل في ذلك من نظمه .

وأحسن من نيل الوزارة للفتى      حياة تربه مصرع الوزراء (١)

وأما جده فقد كان ينادى به أحيانا عن مجالس الهزل والنرويج  
عن النفس ، وخصوصا اذا اقترن هذا الجد لديه بمعاني التقوى والتدين . ذكر  
ان صلاح الدين أخرج له من القصر من يعاني خيال الظل ليفرجه فقام القاضي  
الفاضل ، فقال له صلاح الدين ، ان كان حراما فما يحضره ، وكان حديث العهد  
بخدمته قبل ان يلي السلطنة فما آثر انه يتكدر عليه فبعد الوآخريه . فلما  
انقض ذلك قل له السلطان ، كيف رأيت ذلك ، فقال ، موهظة عظيمة ، رأيت  
دولا تضي ما كأنها كانت ودولا تأتي ، ولما طوى الازار طي السجل للكاتب  
اذا بالمحرك واحد . فأخرج هذا الجد في هذا الهزل . (٢)

---

(١) ابوشامة : ١ ، ٢٧٨

(٢) الغزولي : ١ ، ٧٨ - ٧٩

ولعل تدينه كان اكبر الامور الموجهة لأعماله واكثر العناصر بروزاً في شخصيته ، ويمثل هذا التدين لديه في الاغصاء والصلح والحلم والستر وقراءة الأوراد ومداومة الصلاة والصيام وكثرة الصدقات والوقوف الكثير على رجوه الخير ومساعدة الغرباء ووقف بعض امواله لفكك اسارى المسلمين ، (١) والاكتار من الحج ، (٢) وبناء القيساريات كقيسارية الفاضل ، والمدرسة الفاضلية . (٣) وكان متشكفا لا يبلغ جميع ما عليه دينارين ، كارها لمظاهر السيادة ، فلا يرانقه في روحانه وقدواته سوى فلام وركابي ، (٤) هذا على انه كان قادرا ان ينتحل أبهة الغنى ومظهر النعمة والترف ، فقد كان له دخل كبير قدره السبكي بخمسين الف مثقال من الذهب ، وكان قد استغل ثروته في ضروب التجارات ، (٥) هذا عدا عن ضيعة اهداها له السلطان تسمى ترنجه كانت تغل اثني عشر الف دينار في السنة . (٦) وكان له بستان عظيم فيما بين ميدان اللوق وبستان الخشب في القاهرة ، وكان يد مصر من ثماره واعتابه ، ولم تنزل الباعة في عهد المقریزی ينادون على العنب بقولهم : " رحم الله الفاضل يا عنب " . (٧) ولكنه على تفشفه في حياته الذاتية لم يكن يرضن بالعمل على المنشآت العامة والمساجد والمدارس .

(١) السبكي : ٢٥٣ ، ٤ ، سيط ابن الجوزي : ٨ ، ٣٠٥ ، ٤

(٢) ابن الاثير : ٦٧ ، ١٢

(٣) المقریزی : ١٤٥ ، ٣

(٤) السبكي : ٢٥٣ ، ٤

(٥) المصدر السابق ، ٢٥٣ ، ٤ - ٢٥٤

(٦) الحنبلي : ٣٢٥ ، ٤

(٧) المقریزی : ٨٩ ، ٤

وكان له تهجد بالليل لا يخل به مع اكثاره من تشييع الجنائز  
وعيادة المرضى ، وعادة في زيارة القبور لا يقطعها ، (١) حكى عنه \* انه دخل يوما  
لزيارة الشافعي فوجد الفقيه الجفوشاني يلقي الدرس على كرسي ضيق ، فجلس  
على طرفه وجنبه الى القبر فصاح الشيخ فيه قم قم ، ظهرك الى الامام فقال  
الفاضل ، ان كنت مستدبره بقلبي ، فأنا مستقبله بقلبي فصاح فيه أخرى وقال  
ما تعبنا بهذا فخرج وهو لا يعقل \* ، (٢) والحكاية تدل على اهتمامه  
بزيارة قبور الأئمة والملاحين كما تدل على كبحه لغضبه اذا بلغ الغضب به حدا بعيدا .

وكان متعففا في حياته الخاصة ينفر من الرذيلة كشرب الخمر  
والانهماك في الملذات ، ويبني علاقاته بأصدقائه على أساس من هذا الفهم ، قال له  
صلاح الدين يوما ، لنا مدة لم نر فيها العماد فلعله ضعيف ، اض الى داره ،  
وتفقد احواله ، فلما دخل دار العماد وجد اشياء انكرها في نفسه ، فقد أتى مجلس  
شرب وطيب ووجد وراحة خمر وآلات طرب فأنشد :

ما ناصحتك خبايا الود من رجل      ما لم ينلك بمكروه من العذل  
محبتني فيك تأبين ان تسامحتني      بأن اراك على شيء من الزلل (٣)

(١) السبكي ٤١ ، ٢٥٣

(٢) المصدر نفسه ٢٥٣

(٣) الصفي ١ ، ٩٤

لقد فرضت عليه حياته السياسية الغاية هذا الضرب من الجهد  
الكثير ، واقترن فيه الجهد بالتدين ، ذلك هو الطابع العام لشخصية رجل  
كالقاضي الفاضل مسؤول يحس بمسؤوليته احساسا دقيقا ، فالحزم من لوازمه  
الضرورية ، وبحسب الرجل ان يكون في مثل موقفه ، أى تحت سياسيا مقصودا مدحا  
ينظر الناس اليه ويعدون عليه حركاته وسكناته ، ويتوقعون منه الجود والعون ، بحسبه  
ذلك - ان كان صالح الأهداف - حتى يكون في احواله العامة مستقيما - الى  
حد يبلغ <sup>التميز</sup> التمييز احيانا - في التدقيق والتوفيق والحذر . ومع ذلك كله لم يكن  
القاضي الفاضل يبعيدا عن تلوذ عارفيه ، فان اخلاصه كان يتجلى في اعماله ،  
وكان محبا لمساعدة قاصديه حافظا لعهود اصدقائه هيلبي حاجة المحتاجين ،  
ويشجع صاحبه على النظر في مظالم المتظلمين ، وهو غير مغلق النفس تماما عن  
الظرف الذى يحرق آثار التشدد من النفوس ، ويعتمد ظرفه في الاكثر على سرعة  
بديهته وعلى لون من الدعاية الكلامية يتصل باجاداته للتلاعب بالألفاظ . فقد  
روى أن العزيز ، هوى قينة شغلته عن مصالحه ، وبلغ ذلك والده ، فأمره بتركها  
وضعها من صحبتة ، فشق ذلك عليه ، وضاقت صدره ، ولم يجسر ان يجتمع بها ،  
فلما طال ذلك بينهما سورت له مع بعض الخدم كرة عنبر ، فكسرها ، فوجد في  
وسطها زر ذهب ، ففكر فيه ، ولم يعرف معناه ، واتفق حضور القاضي ، فعرفه  
الصورة ، فعمل القاضي الفاضل في ذلك بيتين وأرسلهما اليه ، وهما :

اهدت لك العنبر في وسطه زر من التبر دفيق اللحام  
فالزني العنبر معناهما زر هكذا مستترا في الظلام (١)

وروي عن ابن سناء الملك قوله " خرجنا للقاء القاضي الفاضل  
رحمه الله في بعض قدماته من الشام فلقيناه وعدنا . فلما كنا في سطح الخشي  
عن ظبي للموكب ، فركض خلفه المكين ابن حيون طامعا ان يلحقه ، وكان مثل هذا  
الفعل لا يليق به لانه ليس من اهله ، والصدر المتلق لا ينبغي ان يغلط بين يدي  
منه ، فعجب الفاضل منه ، واتفق ان فاته الصيد الذي طلبه ، وسقطت مفرعته من  
يده ورجع الى الموكب وعليه انكسار الفوات وخجل الغلط ، فارتجل الاجل الفاضل :

يا عاديا عدو السفيد ، واثندا عود الحليم  
ضيعت مفرعة وعدت سميها من غير مهم (٢)

ويمكن القول في اجمال ان تدينه كان منبعا لجوانب الخير فيه ،  
وخاصا له عن التورط فيما ينفرا الناس منه ، ومرسحا للتواضع الذي يزين ندى  
المركز العظيم . ولذلك لم يكن البون فيما يدحه به الشعرا - بين حقيقة راتعة  
واخيلتهم - بعيدا ، وانما كانوا يتحدثون عن صفات حقيقية فيه ، دون حاجة الى  
تخيل او تزويد ، فاذا سمعنا ابن سناء الملك يقول فيه :

---

(١) البيهقي ، ١٠٦  
(٢) الأزدى : ٢ ، ١٨٣



في الصوم والصلوات اتعب نفسه	وضمن راحته على اتعابها
وتعجل الاقلاع عن آثامها	ثقة بحسن مآلها وآبائها
نسواء تسببه الملاح بحبها	ونسواء تصببه الطلا بحبابها
صوامها فوامها علامها	عمالها بذالها وهابها (١)

اذا سمعنا هذا ادركنا ان الصدق الاخلاقي في هذه الابيات وضع في

موضعه ، وان الصفات التي ذكرها الشاعر كانت هنالك على التحقيق .

ولو وصلتنا معلومات عن حياته العائلية لاستطعنا ان نضيف

عناصر أخرى الى شخصيته او نفوى الشواهد على العناصر التي اكدتها الاخبار والروايات .

وكل ما نعرفه في هذه الناحية انه تزوج ورزق بنون وبنات تعرف منهم ابنة له ، وابنا

جرى على اعراق أبيه هو القاضي الأشرف بها<sup>١</sup> الدين ابو العباس احمد ، فكان كبير

المنزلة عند الملوك مثابرا على سماع الحديث وتحصيل الكتب . اما عن شخصية

القاضي الفاضل بين زوجه وأولاده فالأخبار لا تسعفنا عنها بشيء في هذه الناحية .

على اننا نعلم يقينا ان القاضي الفاضل قد خلق في بيته جوا أدبيا

علميا ، لشدة شغفه بجمع الكتب ، فكان يرسل في احضار أي كتاب يسمع به مما يبلغ ثمنه ،

او كان يطلب ان ينسخ هذا الكتاب اذا لم يتمكن من شرائه ، كتب مرة الى العماد يقول

(١) ابن سناء الملك ، ٥٩ - ٦٠

(٢) ولد عام ٥٧٣ هـ في القاهرة - وتوفي عام ٦٤٣ هـ . "ابن خلكان ، ٢ : ٣٣٧ "

وسمع ~~بفتح~~ بانادة أبيه وبمنه الشيء الكثير وخرج على الشيخ وكتب الكثير . توفي

بدمشق "الصفدي ، ٢ : ١٢٠٦ "

" وسمعت انه ورد الى دمشق كتاب فيه رسائل الباخري ، فان امكن شراءه ولا  
فليمكن نسخه " . (١) وتكون لنفسه مكتبة كبيرة بلغت مائة الف واربعه وعشرين الف  
كتاب قيل وفاته بعدة عشرين سنة ، وأخذ قسماً كبيراً منها من خزائن الفاطميين عندما  
استولى عليها صلاح الدين ، (٢) وقسم آخر من خزنة آمد عندما فتحها صلاح  
الدين ، (٣) وقد وصل به ولعه بالكتب ان اشترى مصحف عثمان بن عفان ، المكتوب  
بالخط الكوفي بنيف وثلاثين الف دينار ، وكان يحتفظ بنسخ ومجلدين لا يتوقفون عن  
العمل (٤) ومع اهتمامه الزائد بالعلوم الاسلامية وكتبها ، فانه لم يظهر اهتماماً بالعلوم  
الدخيلة . فقد عرضت عليه مجموعة كتب نفيسة خاصة بالطبيب الموفق ابن المطران  
ردها دون ان يأخذ منها شيئاً . (٥) ولعله كان لديه شيء من الاطلاع على العلوم  
الدخيلة الا انه حارب الفلسفة والمشتغلين فيها ، فقد كتب بيده رسالة عن صلاح الدين  
الى ابنه الظاهرني حلب يطلب منه فيها القضاء على شهاب الدين السهروردي ويقول  
فيها " ان هذا الشهاب السهروردي لا بد من قتله ، ولا سبيل انه يطلق ، ولا يبقى  
بوجه من الوجوه " . (٦) ولو انه اراد ان يشفع لشهاب الدين السهروردي لدى السلطان  
ويوقف قتله لفعل الا انه كان ولا شك متأثراً بالوضع السياسي في البلاد ،

(١) كتاب فيه من كلام الفاضل ٢٦٦ هـ

(٢) المقرئى : ٣٦٢ هـ ٢

(٣) سنة ٥٢٩ هـ ، ابوشامه : ٢٩٤ هـ ٢

(٤) المقرئى : ٣٦٦ هـ ٢

(٥) ابن ابي اصيبعة : ١٦٢ هـ ٢

(٦) المصدر نفسه ١٦٢ هـ

فقد كان المسلمون في حرب دينية طاحنة ، وكان هدف الحكام جمع شمل المسلمين  
وتثبيت عقائدهم لا تبديد همة ، ولذلك نشأ في نفوسهم يومئذ شيء من الفرق والخشية  
من كل موضوع قد يظن فيه التحيف على الدين ، وهذا شيء طبيعي في أيام  
الحروب الدينية ، ولذلك حاربوا الفلسفة والمشتغلين فيها كي لا تفسد ، في ظنهم ،  
عقائد الناس . ومع هذا فإنه طلب من العماد الأصفهاني ان يعرب له كتاب  
كيميا السعادة للغزالي من الفارسية . (١)

ومن كان لديه مثل هذا الاهتمام البالغ بشؤون الكتب لم يكن من السهل  
ان يتصور الدارس مراحل التطور في ثقافته ، او يحكم على المدى الذي بلغه فيها ،  
فقد كان كل محصول القاضي الفاضل قبل ان يرحل الى مصر حفظه للقرآن الكريم  
ولحماسة أبي تمام ، ثم تعلم فن الكتابة على يد اثنين من كبار كتاب الديوان هما بن الخلال  
الذي دربه في صنعة الكتابة بحل محفوظه للقرآن والحماسة ، وابن قادوس الدمياطي ، (٢)  
الذي لم يكن يجد عند الوقت الكافي للدراسة عليه فكان يرافقه في ركوبه من القصر الى منزله  
بمصر ومن منزله الى القصر يتباحث معه في فنون الكتابة والأدب والشعر . (٣)  
كذلك اتصل باتنين من كبار محدثي ذلك العهد ، هما ابو القاسم بن عساكر ، (٤)

(١) ابوشامة ٢٠٤ ، ٢١

(٢) كافي الكفاة ابو الفتح محمود الدمياطي ، كان كاتب الانشاء بالحضرة المصرية ، توفي  
سنة ٥٥٣ هـ ، ابن ميسر ١٧٥ ، ٢١ ، وللقاضى الفاضل قصيدة طويلة في مدحه ،  
" البيهقي ١٧٥ ، " .

(٣) ابوشامة ١٠٣ ، ١

(٤) علي بن ابي محمد الحسن بن هبة الله بن عساكر ، من اعيان فقهاء الشافعية ،  
اشتهر بالحديث وتوفي عام ٥٧١ هـ ، ابن خلكان ٤٧١ ، ٢٠ .

محدث دمشق ، وابوالظاهر السلفي<sup>(١)</sup> محدث الاسكندرية ، وأخذ عنهما . وقد  
صرحت الأخبار انه كان ضعيف البضاعة من النحو ، ولكن قوة الدربة كانت توجب له  
قلة اللحن . وقد ظهرت آثار هذه الثقافة ذات الطابع اللغوي الديني البياني  
في رسائله وشعره ، وان كان هذا هو كل ما لدينا من الروايات عن ثقافته فلا بد  
من ان نفترض - دون خطأ كبير - انه كان " انموذج المثقف " في عصره ،  
وان شغفه / شغفه بجمع الكتب لم يكن ترينا او تكثرا ، وانما كان كثيرا الاطلاع  
والقراءة ، ولعله وهب ذاكرة عجيبة وحضورا ذهنيا فائقا ، فان طريقته في الاملاء -  
وقد تقدمت الاشارة اليها - ما يدل على وهي بالغ وحانظة قوية .

---

(١) احمد بن محمد بن محمد السلفي ، احد حفاظ الحديث المكثرين ، شاعري المذهب ،  
اقام بالاسكندرية وحدث فيها حتى وفاته عام ٥٧٦ هـ . المصدر السابق

شخصیت من حیث آثارها فی بیئتہ

### شخصيته من حيث آثارها في بيئته

من هذه الشخصية ذات المسؤوليات العريضة لا تنف بها خصائصها عند حد الذات ، بل تكون بعيدة الأثر متشعبة التأثير في حياة العصر نفسه بما تملكه من صولجان السياسة وقلم التدبير والتجبر ، وما يتيح لها الشراء العريض - هي إذن شخصية الذي يملك ان يقول ويعمل معا ، وكذلك كان القاضي الفاضل ، ومن ثم ترك في بيئته أثرا بعيدا عميقا واسعا .

١- فالقاضي الفاضل السياسي كان حقا ذا أثر في توجيه سياسة عصره وفي سند صلاح الدين ، إلا انه أخفق في سياسة السلم الى حد ما ، فبعهد مجاهدته مع صلاح الدين ليحرر البلاد اخطأ في انه وانته على قسمتها بين ابنائه . والحقيقة انه يجب ان لا نحمله جميع المسؤولية لأن صلاح الدين كان يريد هذا . ولكن المسؤولية ايضا ايقظت لديه الحس التاريخي ، على نحو فحرفذ ، فاضطلع بتدوين هذا التاريخ فيما كان يسميه المتجددات ، والمباريات ، وهي مذكرات سياسية عامة ، كان شديد الاهتمام بها ، ولو وصلتنا كاملة لكانت من أدق الصور التفصيلية للإيام الصلاحية وما بعدها حتى وفاة القاضي الفاضل - من نواحيها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وهذا نموذج منها للتمثيل ، قال القاضي الفاضل في متجددات سنة سبع وثمانون وخمسائة ، في شرال قطع النيل الجسور واقتلع الشجر وفرق النواحي ، وهدم المساكن ، وأتلف كثيرا من النسال والأطفال ،

وكثر الرخا بمصره فالقمح كل مائة اردب بثلاثين دينارا والخبز البايث ستة  
ارطال بربع درهم والرطب الامهات ستة ارطال بدرهم والموز ستة ارطال بدرهم  
والرمان الجيد مائة حبة بدرهم والحمل الخيار بدرهمين والتين ثمانية ارطال  
بدرهم والعنب ستة ارطال بوزهره . وآل امر اصحاب البساتين الى ان يجمعوا  
الزهر لنقص ثمنه عن اجرة جمعه وثمر الحنا عشرة ارطال بدرهم والبسرة عشرة  
ارطال بدرهم من جيده والمتوسط خمسة عشر رطلا بدرهم ، وما في مصر الا متسخط  
بهذه الفعمة . قال - ولقد كنت في خليج القاهرة من جهة المقس لانقطاع الطرق  
بالمياه فرأيت الماء مملوئا سمكا والزيادة قد طبقت الدنيا والفحل مملوئا ثعرا والمكشوف  
من الارض مملوئا ريحانا ويقولون ثم نزلت فوصلت الى المقس فوجدت من القلعة التي  
بالمقس الى منية السورج غللا قد ملأت صبرها الارض فلا يدري الماشي اين يضع  
رجله متصلا عرض قلنسك الى باب القنطرة وعلى الخليج عند باب القنطرة من مراكب  
الغلة ما قد ستر سواحله وأرضه . قال - ودخلت البلد فرأيت في السوق من الاخباز  
واللحوم والالبان والفواكه ما قد ملأها وهجمت منه العين على منظر ما رأيت قبل مثله .  
قال - وفي البلد من المعاصي ومن الجهر بها ومن الفسق بالزنا واللواط ومن شهادة الزور  
ومن مظالم الامراء والفقهاء ومن استحلال الفطر في نهار رمضان وشرب الخمر في ليله ممن  
يتع عليه اسم الاسلام ومن عدم النكير على ذلك جميعه ما لم يسمع ولم يعهد مثله فلا حول  
ولا قوة الا بالله . وظفر بجماعة مجتمعين في حارة الروح يتغذون في قاعة في نهار رمضان

فما كنتموا ويقوم مسلمين ونصارى اجتمعوا على شرب الخمر في ليل رمضان فما أقيم  
فيهم حد . . (١)

وسجل لعصره في رسائله التاريخية وفي ثنايا عهوده وسجلاته .  
فقد كان يراقب الأحداث عن كتب ويساهم في بعضها ، كما كان يشهد بعض المعارك  
الحربية الدائرة بين العرب والفرنج ويصورها وهو ما زال في أرض المعركة بحيث يصف  
كل ما يدور حوله بشيء من الأسهاب كقوله في فتح حصن بيت الأحران مثلا : " وكان  
مبنيا على صهريج لما فتح المسلمون الحصن رموا فيه ما يناهز ألف تليل ، ودابة محرقة  
بالنار ، فما شدت سدت عرضه ولا ملأت حفرة ، وكان فيه نحو ألف زردية ، والمقاتلة  
ثمانون فارسا بغلمانهم ، وخمسة عشر مقدا للرجال ، مع كل مقدم خمسون رجلا ، هذا  
الى الصناعات ما بين بنا ومعمار ، وحداد ، ونجار ، وصيقل ، وسيوني وصناعات  
الأسلحة . وكان به من أسرى المسلمين ما يزيد على مائة ألف رجل نزعتم القيود من  
أرجلهم وجعلت في أرجل الفرنج ، وكانت فيه اقوات لعدة سنين ، وانواع اللحوم الطيبة  
والخبثية فيها بلاغ ومتاع الى حين . ولما قوتل اول يوم هوجم حوشه وفيه بجزء جماعة  
من المقاتلة ، فضربت رقابهم ، وأخذت <sup>دوابهم</sup> دوابهم ، وفي الحال علقتم النقب على <sup>خمس</sup> خمس  
جهات وحشيت بالنيران ، وتأخر وقوع الجدران لفرط عرض البنيان ، ولم تنزل النار توفد  
ثم تخرج ثم تشعل ثم تخذ ، الى ان تمكنت النقب وحشيت بالأحطاب ، واطلعت  
فيها النيران في يوم الخميس ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشفت الأبرجة فهي يومئذ واهية .



وكان الطاغية مقدم الحصن يشاهد ما حل بينيانه وما نزل من البلاء بأصحابه  
واعوانه . ولما وصلت النار الى جهته القى نفسه في خندق نار صابرا على حرها .  
ففي الحال نقلته هذه النار الى تلك النار . ولما أخذ اسارى الفرنج وهم عدة تزيد  
على سبعمائة بعد المقتولين ، وما يقصر عدتهم عن مثلها ، توفرت الهمة على هدم  
هذا الحصن وتعنية أثره وازالة ضرره . (١)

ومن هنا تأتي اهميته في التاريخ ، فهو في الدرجة الاولى شاهد عيان  
ينقل لنا ما يرى ويتوخى في الوقت ذاته صدق الأخبار التي يسمع بها قبل نقلها ما  
يدل على امانته التاريخية التي عبر عنها بقوله \* كذلك الملتصق امسك حين كانت  
الأخبار بجانبه مشبهة ، والحقائق لديه غير متوجهة \* . (٢) كما ان نقله  
للأحداث كان مبنيا على شيء من التعليل والتفسير الديني ، فإله مسير الأحداث  
ومكيفها ينصر من يشاء ويهزم من يشاء \* . ولا يغتر بكثرة العساكر والاعوان ،  
ولا فلان الذي يعتمد عليه ان يقاتل ولا فلان . فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر  
بها . وإنما النصر من عند الله ، ولا نأمن ان يكفينا الله اليها ، والفصريه واللفظ  
منه ، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا ، فلولا انها تسد طريق دعائنا لكان جواب  
دعائنا قد نزل ، وفيض دموع الخائسين قد غسل ، ولكن في الطريق عائق خار الله لمولانا  
في القضاء السابق واللاحق \* . (٣) ولعل من عيوب القاضي الفاضل كمؤرخ اهتمامه الزائد  
بالاسلوب ، ومبالغته في بعض الأحيان ، إلا ان هذا لا يضع من اعتبار رسائله من مصادر  
دراسة الفترة المعتمدة التي لو جمعت بأكملها لأعطت خير صورة عن الفترة .

(١) ابوشامة ١٣٦٢

(٢) الفلقشندي ٥١٦٦

(٣) ابن كثير ٢٣٩١٢

٢- والفاضي الفاضل الشري الخير الذي يملك القدرة على الانشاء

والتعمير بحكم مركزه وشركه وحبه للخير ، كان يهتم بالمنشآت العامة ، وبخاصة المدارس فانشأ المدرسة الفاضلية التي وقفها على طائفتي الفقهاء الشانعية والمالكية وجعل فيها قاعة للاقرء (١) اقرأ فيها الاسام ابو محمد الشاطبي (٢) القرآن الكريم وقراءته والنحو واللغة . (٣) كما اقرأ فيها تلميذه محمد بن عمر القرطبي وغيرهما . ورتب فيها فنيها لتدريس فقه المذهبين ، ووقف بها مجموعة كبيرة من الكتب في العلم يقال انها كانت مائة الف مجلد . (٤) ودار الحديث الفاضلية خصصها لتدريس الحديث ومسجدا بدمشق . (٥)

ووفقا لذلك ايضا كان شديد الاهتمام بالعلماء والرعاية لشؤونهم وتدبير

مصالحهم ، ذكر الفقيه اسماعيل بن صالح القفطي خطيب عيذاب (٦) انه لما فتح السلطان الساحل ارتحل عن عيذاب لزيارة بيت المقدس ، ولما مر بالشام أعجب بمناخها ومناظرها وتمنى المقام بها فقصد الفاضل الفاضل وسأله ان يتوسط له لدى السلطان ليوليه خطابة قلعة الكرك فكتب له كتابا تلتف فيه . (٧)

- 
- (١) المقرئى : ٣٦٦٤٢
  - (٢) ابو الفاسم بن فيره الرعيني ، أندلسي الاصل ، كان ضريرا ، دخل مصر عام ٥٧٢ هـ وسمع الحديث عن السلفي ، توفي عام ٥٩٠ هـ "بدوى" ٩٨
  - (٣) المصدر نفسه ٩٨
  - (٤) المقرئى : ٣٦٦٤٢
  - (٥) بلدية على بحر العالزم وهي مرسى المراكب القادمة من عدن الى الصعيد الأحمر
  - (٦) الصعيمي : ٨٩٤١
  - (٧) السفدى : ١٧٤٤

كما أبدى اهتماما كبيرا بالطبيب موفق الدين البغدادي (١) عندما وفد عليه في عكا ولبى طلبه في تأمين عمل له في مصر، وأرعى به وكيله فيها ابن سناء الملك وكان يرسل كل عشرة ايام رسالة الى وكيله بمصر مخبرا بتطورات الموقف بين المسلمين والفرنجة وموصيا بموفق الدين البغدادي (٢) وكان يقوم برعاية ابي عمران موسى بن ميمون القرطبي (٣) بالرغم من اشتغاله بالفلسفة ولعلم لم يتسبب في اضطهاده كما فعل بالسهروردي لأن الاخير كان يهوديا . وبالغ فيه النحوي شيت بن ابراهيم القفطي ويقبل شفاعته في حق من يشفع فيه (٤) وبأبي القاسم الشاطبي الذي اشترط عليه شروطا عديدة قبل العمل في مدرسته ، وافق عليها جميعها وانزله على الرحب والسعة . (٥)

- 
- (١) موفق الدين عبد اللطيف البغدادي ، بغدادى المولد اتصل بصلاح الدين والقاخي الفاضل وأقام يدرس انطب في الجامع الأزهر في القاهرة وانتقل في آخر حياته الى حلب ، ابن ابي أصيبعة ٢٠٧٤ هـ .
  - (٢) ابن ابي أصيبعة ٢٠٢٤ هـ .
  - (٣) طبيب يهودي الأصل ، كانت له معرفة بالفلسفة . اقام في مصر زمن صلاح الدين ثم انتقل لخدمة ابنه الأفضل " ابن ابي أصيبعة ١١٧٤ هـ ، ٢٠٥٥ هـ .
  - (٤) من أهالي فسطاط بمصر ، درس النحو وصف فيه ، توفي عام ٦٠٠ هـ " القفطي ٧٣ - ٧٤ هـ .
  - (٥) بدوى ، الحياة العقلية ، ٩٨

٣- والقاضي الفاضل الكاتب الشاعر لم يكن فحسب نموذجاً يحتذى في الكتابة ولا كان شاعراً منقطعاً لنفسه فحسب ، بل كان موجهاً للحركة الشعرية والحركة الأدبية في عصره ، وكان ذلك يتم على صور عدة ، منها ان شخصه كان " مركز الدائرة " لكثير من أدب هذا العصر ، فمداخره كسيرون ، والكتب تؤول باسمه وترفع اليه في شتى الموضوعات ، وهو لا يكف عن ان يطلب من المؤلفين ان يكتبوا في هذا الموضوع او ذاك ، وفي مجلسه تدور الاحاديث والمباحث التي يلتقي حولها المثقفون ، وهو " الراعي " الذي يهتم بأمر الأديباً ويقربهم من السلطان ويحسن اليهم ويطلب لهم المساعدات ويوجد لهم الوظائف ، فمن نألفوا له محمد بن هبة الله البرمكي الحموي - الامام تاج الدين ، ارجوزة في الفرائض سماها روضة المتراض ونزهة الفراض قال فيها ، جمعتها لجامع الفضائل ، الاوحد الاجل الفاضل محي موات الفضل ذي الجد العلي عبد الرحيم بن ابي المجد علي ، اهدى اليه نظرة من بحره ، اذ كل ما أنظمه من نثره

وهو الذي اجمع كل عالم في عصرنا من نائر وناظم

بأنه الحبر النسيج وحيد ، في علمه ودينه وزهده (١)

وصنف له الأسعد وابن ماتي تصانيف عدة باسمه . (٢)

---

(١) السبكي : ١٩٦٤ : ٤

(٢) ياقوت : ١١٣٦ : ٦

وكانت مجالسه مدارا للنشأطين الفكرى والآدبى ، وملتقى لشعراء العصر وكتابه ومحبي الآدب فيه ، يجتمعون للحديث والمناقشة في موضوعات وفنون مختلفة ، ورئيس المجلس - القاضي الفاضل - يشاركهم ابحاثهم ويدبر دفة نقاشهم بكل حكمة ولباقة ويطلق على بعضهم القبايا مختلفة حسب اسهامهم في المجلس - فيسي الأُسعد بن ماتي مثلا بليل المجلس لما يرى من حسن خطابه (١) ويفتح المجال للأدباء الموجودين عنده لنقد بعضهم ، ذكر ان الآدباء كانوا مجتمعين عنده في احدى المناسبات ، وكان العماد الأصبهاني حاضرا عنده فلما انفصل قال الفاضل للجماعة : بم تشبهون العماد ، وكان عنده فترة عظيمة وجمود في النظر والكلام فاذا اخذ القلم أتى بالنثر والنظم فكلهم شبهه بشي فقال ، ما أصبتم ، هو كالزناد ظاهره وباطنه فيه نار . (٢) ويفتح ابوابا للنقاش يختبر فيها ذكاء المساهمين فيه وثقافتهم ومدى قدرتهم على النقاش ، تحدث علي بن ظافر الأزدى عن احد مجالسه بقوله " دخلت يوما على القاضي الفاضل رحمه الله فجرى في مجلسه من فنون المذاكرة ما أدها الى ان قال ، كان الرشيد احمد بن الزبير قد اجتمعت فيه صفات وأخلاق تقتضي ان تجرد معاني الهجاء فيه . من ذلك انه كان اسود ولا يزال يدعي الذكاء ، وان خاطره من نار فقال فيه ابن قادوس :

(١) المقرئى : ٢٦٠ ، ٣

(٢) الصندى : ار ١٣٩

ان قلت من نار خلقه      ت ونقت كل الناس فهما  
فلنا صدقت فما السدى      اطفائك حتى صرت فحما

وأرسل الى اليمن ولقب علم المهتدين فقال فيه بعض الشعراء من قطعة

يخاطب الخليفة :

بعثت لنا علم المهتدين      ولكنه علم أسود

يعني ان الأعلام السود انما تكون للعباسيين وأعلام تلك الدولة بيض .

وتولى مطايخ الخليفة فقال فيه بعض الشعراء يخاطب الخليفة :

تولى على الشيء اشكاله      فتحسب هذا لهذا أخا

تولى على المطيخ ابن الزبير      تولى على مطيخ مطبخا

وكان ينافر في سوق الشعر ويسرق المعاني فقال فيه ابن نادوس :

سلخت اشعار الوري جملة      حتى دعوك الأسود السالخا

فأخذ الأشعد بن الخطير يستحسن هذه القطعة فنقلت له كما تقول

الا انه لحن في قوله الايهود السالخ فانما يقال اسود سالخ وسام أبرص ،

فاللحن يقيم الوزن والصواب بكسره فهو بين خطئي خسف فأخذني المشافهة الى ان

قال من اين نقلت هذا ، نقلت احضر شاهدي عندك الساعة كتاب الحيات من كتاب الحيوان

للجاحظ ، فقال ، الجاحظ ليس من اهل اللغة ، ونقله في هذا الموضع لا يسمع ،  
فقال الأجل الفاضل ، دع هذا فالصواب معه وهذا مجمع عليه ، ولكن عرفنا كيف  
كان يصنع حتى ينظم المعنى ، نقلت يترك هذا الوزن وينظمه في وزن يستقيم عليه  
الصواب فقال انظمه لنا نقلت ارتجالا :

وسلخت اشعار البرية كلها حتى دعيت لذاك اسود سالخا

فقال مثلك يقول لذاك ، نقلت حتى دعاك الناس ، فقال انما كنت أريد ان تنظمه  
أخصر من بيته ، ودخل عليه من انقطع طلبه لدخوله ، فلما سكن قال تعرف له  
وجهها يذهب النفس عنه ويخلصه من الطعن عليه ، نقلت مولانا اعلم فقال انه حكى  
عن الناس تلقيهم اباة بالاسود السالخ فكانه لحن على الحكاية لا لانه حكى عنه  
هذا فاستحسنه وان لم يكن صحيحا من الاعذار ، ثم خرجت فلقبيت الاسعد بن  
عبد الرحمن بن شيت فحكيت له الحكاية فقال لما طلب منك اختصاره كت تقول ، وقال  
على الفور :

وسلخت اشعار الزرى فدعوك اسود سالخا (١)

وفي مجالسه كانت تتجلى المواهب الشعرية فينظم الشعر بديها وترتجل  
الآبيات في موضوعات مختلفة . ذكر الأزدى اني غنى بين يدي الملك العزيز دوبيت  
بالعجمية معناه انه جعل الليل برد دار<sup>١</sup> للحبيب ليحجب المشمخ<sup>٢</sup> الشمس  
فاستحسن المعنى وأرسل الى وزيره الأجل نجم الدين ابي الفتح يوسف بن المجاور بأمره  
ان يصنع المعنى في شعروان يأمر الشعراء بالعمل في ذلك فصنع بديها وأرسل اليه :

(١) الأزدى : ٢٠٠٦ ، ٢٠٦

(٢) حاجب

قال له الليل انصرف راشدا فانه استخدمني برد دار

ثم صنعوا بعده من مروا وباده ، وذكر الأشعد ابوالمكارم اسعد بن الخطير قوله  
كنت عند الفاضل رحمه الله تعالى اذ دخل الوزير نجم الدين فأخبره بما طلب  
السلطان وأنشده ما صنع فقال الفاضل هذاه معنى كنت نظمته قديما الا انسي  
استخدمت بوابا فقلت :

بتنا على حال تسوء العدا      وربما لا يمكن الشرح  
بوابنا الليل وقتلنا له      ان غبت عنا هجم الصبح

( قال الأشعد ) ولم أكن صنعت شيئا فصنعت يديها :

قلت لليل عندما زارني اليد      ر وأوجست خيفه للروح  
أنت يا ليل برد دار حبيبي      فتأهب لدفع صدر الصباح

قال فاستحسن الوزير القسم الثاني . (١)

وكانت مجالسه هذه مجالا لتعارف الأدباء ووصلهم بالحكام ،  
ذكر ان أول معرفة عز الدين فرخشاء بتاج الدين ابي اليمن الكندي جرت في مجالسه ،

---

(١) المصدر السابق ٢٤ ، ٢٥



وانتفى بالعماد الأصفهاني<sup>(١)</sup> في حمص ، فمدحه العماد بأبيات منها :

عانيت طود سكينه ورأيت شمر من فضيلة ووردت بحر فواضل  
أبصرت نسا في الفصاحة معجزا فعرفت اني في فهاهة باقل<sup>(٢)</sup>

فدخل الفاضل على صلاح الدين ورفعه بالعماد ثم قال " انا لا يمكنني  
الملازمة الدائمة في كل سفرة وهذا يكاتبك ملوك الاعاجم ولا تستغني في الملك من  
عقد المظفات وحل التراجم والعماد يفي بذلك ، ولك اختاره وقد عرف نفسي  
الدولة النورية مقداره " .<sup>(٣)</sup> وأصبح العماد بعدها الكاتب الثاني لصلاح  
الدين بعد القاضي الفاضل . ووصد الفاضل بصلاح الدين عددا آخر من الشعراء  
والأدباء من بينهم الخطير بن معاني<sup>(٤)</sup> وأبو القاسم عبد الرحمن بن هبة الله بن  
حسن بن رفاعه<sup>(٥)</sup> وابن سناء الملك<sup>(٦)</sup> ، وشرف الدين محمد بن اسعد الجواني  
الحسيني .<sup>(٧)</sup>

- 
- (١) عماد الدين الأصفهاني ، الكاتب المشهور فقدم الى الشام في عهد نور الدين  
ثم اتصل بصلاح الدين ، وكان يلزمه للكتابة اثناء غياب القاضي الفاضل ،  
" ابن خلكان : ٢٢٣ ، ٤ - ٢٢٥ " .
  - (٢) الأصفهاني : ٢٧٤١
  - (٣) ابوشامة : ٢٥١٤١
  - (٤) كان علي ديوان الاقطاعات زمن الناطميين ، ثم عمل وابنه الاسعد في الديوان  
القاضي " الأصفهاني ١١٢٤١ "
  - (٥) من الشعراء المصريين توفي ٥٩٢ " الأصفهاني ٥٦٠
  - (٦) كان يعمل نائبا للقاضي الفاضل في ديوان الانشا بمصر ، ودارت بين الاثنين رسائل  
عديده . توفي عام ٦٠٨ هـ " ابن خلكان ١١٢٤٥ " .
  - (٧) كان نقيب الاشراف بمصر ، وهو شيعي المذهب ، توفي عام ٥٨٨ " الأصفهاني  
" الأصفهاني ١١٧٤١ ، هامش ١ " .

فقد جرى ذكر بيت من شعر ابي الطيب فتكلم فيه تاج الدين بما يليق ، فأعجب فرخشاء  
وسأل القاضي الفاضل عنه فقال ، هذا فلان ورفقه بفضلته ، فلما قام فرخشاء من مجلس  
الفاضل اخذ بيد الشيخ تاج الدين وخرج به ولزمه الى ان توفي . (١) كما كان معظم  
المجتمعين فيها ممن سبق للقاضي الفاضل التعرف اليهم ، وتقريبهم من السلطان ،  
واعطائهم المناصب اللائقة بهم ، ورعايتهم ، والاهتمام بأمرهم . ولا لما كان يراه من  
نبرفهم . فقد توطدت علاقته بالمهذب بن اسعد بن ماتي ، (٢) عندما قصد  
الآخر صلاح الدين وهو مخيم بظاهر مدينة حمص ، وهناك بقصيدة اولها :

ما نام بعد البيه يستحي الكرى      الا ليطره الخيال اذا سرى  
كلف بقر بكم فلما عانته      بعد المدى سلك الطريق الاخصرا

وكان الفاضل جالسا مع السلطان فقال له ، هذا الذي يقول " والشعر ما زال عند  
الترك متروكا ، وكان يعني القصيدة التي قالها في مدح الصالح بن رزيق :

من ارتجى يا كريم الدهر تنعشني      جدواه ان خاب سعبي في رجائيكا  
المدح الترك ابغي الفضل عندهم      والشعر ما كزال عند الترك متروكا

نعجل جائزته لتكذيب قوله . فجمع السلطان له بين الخلعة والضيعة (٣) . والقطع

(١) ابوشامة : ٢٥٠ ، ٢

(٢) الاسعد بن الخطير ، كان ناظر الدواوين في الديار المصرية ، اسلم زمن صلاح الدين ياقوت

(٣) ابوشامة : ٢٤٠ ، ١

" ياقوت ١١٣٠٦ "

٤- على ان من أهم المظاهر التي تشير الى تأثير الفاضل  
" شخصية الناقد " لديه ، فقد كان في هذه الناحية مرجعاً في الحكم على الأوب  
والأدباء ، وأسبق لرايه وزنه الخاص ، ولترجيحاته مدلولاتها البعيدة ، وربما رأينا في  
احكامه النقدية اليوم سداجة احيانا او اهتماما بالجزئيات احيانا ، ولا اوتوعاً من  
التفريط وبخاصة لقصائد ابن سناء الملك . ومع ذلك فيجب ان لا نغفل ملى اهميتها  
لانها صادرة عن رجل كان يعده الأديبا من حوله اماما لهم .

فهو الذي شجع العماد الاصفهاني على عمل مختارات لشعراء العصر ،  
فأنجزها العماد في ما سماه " الخريدة " - ومن ضروب هذا التشجيع ان القاضي  
الفاضل اهداه تسع مجلدات من الكتب النفيسة تشتمل على اشعار اهل العصر  
المغربيين وآدابهم وغيره ودله فيها على بعض ما جاءوا فيه من المعاني المبتكرة  
وافرايم فيها واعجازهم واعجابهم . (١)

كذلك تشجيع ابن سناء الملك على صنع مختار من شعراء الرومي ،  
فبدأ ابن سناء الملك العمل مختاراً حرف الألف بعد ان قرأه على القاضي الفاضل  
ووجد بالاكمال ثم سافر الى دمشق فكتب اليه القاضي الفاضل يستحثه على انجاز هذا  
العمل ويقول : " كان القاضي السعيد لما وصل الى دمشق عائداً من قراء  
شعراء الرومي واختياره فاختر حرف الألف وتوجه قبل تمام الاختيار ووجد بأنه يكمله ،

فلم لا أنجز ميعاده ولم لا أجعل مرادى مراده وكان يبرز من الشعر محاسنه  
المعمورة ويلفظ ابياته الخراب ويبقي ابياته المعمورة وكان ابن الرومي / *ليدلك*  
يشكره في لحده ويستعير السنة الأخبار في حمده . . فأجابه ابن سناء الملك . اما ما  
أمر المولى به من شعر ابن الرومي فما المملوك من اهل اختياره ولا من الخواصين  
الذين يستخرجون الدر من بحاره لأن بحاره زخارة واسوده زارة ومعدن تيره  
مردوم بالحجارة ، وهلى كل عقيلة منه الف نقاب بل الف ستارة يطمع ويؤيس وينفر  
ويؤنس وينفر ويظلم ويصبح ويعتم شذرة ومعة ودره وآجرة وقبلة بجانبها السبة  
وحرة تجاورها فحبة ووردة حف بها الشوك وبراعة *مخط* غطى عليها النوك لا *يخط*  
يصل الاختيار الى الرطبة حتى يتجرح بالسلى ولا يقول عاشقها هذا المليح قد  
أقبل حتى يقول قد ولى . فالمولى من جهابذته فكيف وقد تفسر فيه الوزير ولا من  
صيافته ونفاده ولو اختاره جرير لاعياه تمييز الوشي من الحشي والوبر من الحرير .  
والمملوك يكمل بمشينة الله تعالى بفية فراءة حروفه ولكن بين يدي من قرى بين يديه  
حرف الألف لي شاهد من *م* مولا معجز اختياره الذى يجعل المختلف فيه من الشعر  
المؤتلف . . (١)

وهذا يدل على عناية القاضي الفاضل بشعر ابن الرومي ، كما ان رأى

ابن سناء الملك يدل على تهديه لافتحام هذا البحر الخطير ، وهي شهادة لابن الرومي

ومدى العناية به في القرن السادس الهجرى .

ويستشهد العماد برأى الفاضل في غير موضع من كتابه حين يتصدى لأحد الشعراء ، فأبو الحسن بن زيد الأنصاري رجل لم يسمع الدهر بمثله (١) (في رأى القاضي الفاضل ) ورضي الدولة أبو سليمان المحلي شاعر مله فكيه - كذلك قال فيه القاضي الفاضل . (٢) واعتقد ان القاضي الفاضل لم يكن يرسل هذه الأحكام ارسالا شفويا ، وانما كان له مجموع مكتوب في شعراء عصره - والعماد ينقل منه ، ولكن هذا المجموع الذي اقدر ان القاضي الفاضل انه لم يصلنا .

وهناك جانب من نقد القاضي الفاضل شكلي بالأنفاظ ، فقد عاب

على ابن سناء الطك استعماله كلمة " الكس " في بيت من ابياته وهو :

صليني وهذا الحسن باق نريما يعزل بيت الحسن منه ويكس

قال له فيه " وما قلت هذه الغاية الا وتعلمني انها البداية ، ولا قلت هذا البيت آية القصيد الا قائلا ما بعده ، وما نريهم من آية ، أنسحر هذا أم انتم لا تبصرون . ولا عيب في هذه المحاسن الا قصور الافهام ، وتقصير الانام ، والا نقد لهج الناس بما تحتها ، ودونوا ما دونها ، وشغلوا التمانيف والخواطر والاقلام بما لا يقاربها ، وسارت الأشعار وطالت بما لا يبلغ مداها ولا نصفه ، والقصيدة فائقة في حسنها ، بديدة في فنها ، وقد ذلت السنين فيها وانقادت ، فلوانها التلؤلؤ لما رادت ، وبيت يعزل ويكس ،

الراء

(١) الأصفهاني ٢١ ، ٤٥

(٢) المصدر نفسه ٢ ، ٤٥

أردت ان اكتسه من القصيدة ، فان لفظة الكس غير لائقة في مكانها \* . فأجابه  
فأجابه ابن سناء الملك قائلا \* وعلم المملوك ما نبه عليه مولانا من البيت الذي  
أراد ان يكتسه من القصيدة ، وقد كان المملوك مشغولنا بهذا البيت الذي أراد  
ان يكتسه من القصيدة ، مستحيا له متعجبا منه ، معتقدا انه قد طلع فيه ،  
وان قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوائمه ، وما اوقعه في الكس الا ابن  
المعتر في قوله :

وقوامي مثل الغناة من الخط وخدي من لحيثي مكروس

والمولى يعلم ان المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثر ، ويطلب مطالبه  
فتتعرض عليه وتتعذر ، ولا آنس ناره الا لما وجد عليها هدى ، ولا مال المملوك  
الا الى طريق من ميله اليه طبعه ، ولا سار قلبه الا الى من <sup>دلته</sup> عليه سمعه ،  
ورأى المملوك ابا عبادة قال :

ويا عاذلي في عبرة قد سفحتها      لبيّن ، وأخرى قبلها للتحبيب  
تحاول مني شيمة غير شيمتي      وتطلب مني مذها غير مذهبي

وأورد حججا كثيرة يبرر فيها استعماله لهذه الكلمة . فأجابه القاضي

الفاضل بقوله \* ولا حجة فيما احتج به عن الكس في بيت ابن المعتر ، فانه غير  
معصوم عن الغلط ، ولا يقلد الا في الصواب فقط ، وقد علم ما ذكره ابن رشيق

في عمدته من تهافت طبعه ، وتباين وضعه ، فذكر من محاسنه ما لا يعلّق معه كتاب ، ومن بارده وفته ما لا تلبس عليه ثياب \* . (١) وقد استشكل الصفيدي على ورقة القاضي الفاضل هذه من مثل هذه الكلمة وقال \* ان الفاضل نفسه ممن يتوخى هذه الألفاظ ويقصد ما وينشئها وينشد ما ويروي زنادها ويورد ما في بعض رسائله ، وما استطاعت ايديهم ان تنبض جمره ولا البابهم ان تسيخ خمره ولا سيوفهم ان تكس قبيح<sup>هم</sup>ه ولا اعراضهم ان تأخذ لطيمه \* . (١)

ومن أمثلة ذلك تعليقه على قصيدة لابن سطة الملك يمثه فيها بالقدم من دمشق : \* ويارأيت اغرب من مطلع القصيدة ولا أدل منها على شطارة طبع ولا من بيت الكأس المكسورة ولا أدل منه على صلابه ينبع ولا من الورق الخضر \* يشير الى أبيات في القصيدة يقول فيها الشاعر :

وساحره عانت سلافة جفنها      بكأس به كسر وهذا هو الصحر  
و . . . فلا تنكروا منها الخضاب فانما      هي الغصن في اطرافه الورق الخضر

ولا هو أدل منه على رقة طبع وشدة نزع ، ما هو الا مالك عنان الفضل في عصره وواحد كل دهر ولا اسمح بهذه المنقبة لدهره ، وما تغصصتالا ~~بغيبه~~ بغيبه ابن المعتر عن ان يسمع كما نسمع فيقطع بفضله كما ننتطح ، ويكف عن عدوا تشبيهه ، ويفيض عن غلوا توجيهه ، ونوافقه على انه اتكأ واتكل على ذي الرمة فأخذ في طريقه مستأنسا برقيقه ،

(١) الفلقشندي : ٢٤١ ، ٢٤١ - ٢٤١

(٢) الصفيدي : ٢٤٦ ، ٢٤٦

فما ترك له تشبيها الا نقله ، وصفله ، واستعمله ، واستنزله ، وروجه ، ورنده ، وأخرجه ، وخرجه ، ولو تأمل شعر زى الرمة لخرج منه ما قاله برمته وعرف انه قال فيلان فغار على بنات فكرته ، فكان ابن المعتز يخلع على تلك البلاغة خلعة من ملك الخلافة فتشبهه يوما ، ويرجع غلا عن القول بامامته من المبايعين والمتابعين يوما ، وكان يصدق شيخ البلاغة ان يقول ، ولكنه صوب العقول ، وصاحبنا هذا صحبه الديم وصحبه النعم ، وسبح بحمده القلم ، ما استأنس الا بنفسه ولا رأى مثلها ولا يرى ولا يرى ولا أخرج الا من كيس فكره النفود التي تباع بها القلوب وتشتري . (١) وتعليق آخر على قصيدة فائية لابن سنا الملك ايضا حيث يقول " فأما الفائية فالوارعندما فأنا ومن هو الوار الركيك بل كل شاعر مفلق على حروف المعجم عندها فأنا وأوجه الحساد عند سماع قوافيها أفقا ، ولو روى سار بنظرة عندي لوفت ولو استعطفت الفصاحة العربية الألسنة العربية بكلمة منها لعطفت وانعطفت ولو ان البلاغة حلة لكان لايسها ولو ان الشعر حلبة لكان فارسها . (٢) وله تعليق على قصيدة ثالثة بقوله " وهي قصيدة فريدة صارت بعدها القصائد قصدا وطريقة فيها صارت طرائق البلاغ بعدها قددا ، وان قلت انها نادرة فالقادر رأيت ، او سيارة فانها لا تحتاج الى لسان راويها ولا الى يد ناقلها فهي تدعى نفسها باسراق شمسها ولا تزال جديدة الايام يوم قد ومما وكل الليالي ليلة عرسها ، تلا تعدوان تدير على العقول

(١) ابن سنا الملك ، هامش ، ٢٧٨ - ٢٧٩

(٢) المصدر السابق ، هامش ، ٤٧٥ - ٤٧٧



كأسا لا يجني الحديث في طريق فهمها ما يجني الحديث في طريق  
الكأس من جنسها \* . (١)

غير ان هذه الأمثلة وان كانت تنحرنحوالمدح والثناء - مع نقد  
يسير في بعض الأحيان - تدل على مدى رعاية القاضي الفاضل لتلميذه وصديقه  
ابن سناء الملك ، وان حماسه لاتجاهه الشعري ، انما كان بوحى من هذا التشجيع  
المتواصل .

وله تعليقات عديدة على بعض رسائل العماد يقول في احداها :  
" فاما الرسالة التي لزم فيها الحرفين وهما الميم والذال ، وهما للخطا الحرثان  
اللذان لزم مجموعهما خاطرهما ، وهو المد الذي لا يتعقبه جزر ، ولا يأتي عليه  
حصر ولا جزر ، ولا يعارضه سايح الا احتجفوه ، ولا يبارى سحره قائل الا . . . .  
ووقف ، فتلك رسالة شغلي لحظات العيون منظرها ، و  $\times$  وملاء قبضات الايدي  
جوهرها ، ولا احصيت خواطر عبد ، الا منذ انتجعها ، ولا ملئت اذن الا منذ سمعها  
ولا اهتدى في مضال الكتابة الا منذ اوقد النصل نارها على علم من كتابه ورفعها ،  
فتبارك معطيها ولله متعاطيها ، لقد ظن ان فتح ورقها انه يخصف عليه من  
ورق الجنة حقا ، وقال يقول اصلها كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا ، ان تشابه التجنيس  
لفظا وخطا ، وزهت روضته بغصون اسطر تشبه ضبطا ونقطا ، وشافهت محاسنها الاذن

---

(١) المصدر السابق ، هامش ، ٢١٧

فعلقت منه قرطا ، وجاءت بفظق العرب الأصيل وأخذت على خواطر الوصف كل  
وصيل وقطعت عليه عربيتها طريق المعارضة قطع الاعراب وكان كتابها لجل ولكل  
أجل كتاب " (١) ويقول له في رسالة أخرى " ونفذت بلاغته بسلطانها ، ونفتت  
بسحر بيانها ، وصلى القلم من يده في محراب من طرسه على سجادة ، وجاء منه  
كتاب لو كان من البحر مداد لما زاد ، وم كتاب لا يساوى مداده ، وتحاشرت فيه  
اجناس التجنيس و . . . الأتلام فأدت ما كانت استعدته وقت كونها خسا لساكن  
الخنس ، وجاء النمط العالي والغاية التي لا يصلها التالي ، ولا يسلو عنها السالي ،  
وأخذت روضة الأدب زخرفها ، وحملت من الرسالة أحرفها ، وشتت الغارة على  
السمع والبحر ، وزارت بليلة كليله الذوائب حسنها في الطول وحسن الليالي في  
البصر . وسلم بها من اسلم وبهت الذي كفر . (٢)

اما شخصيته من حيث أثرها في الفنر والشعر فتحتاج ان نفردها  
القول في فصلين تاليين ، لاتساع هاتين الناحيتين ، أعني كونه ناهرا وشاعرا .

---

(١) المختار من كلام الفاضل ، ١٥

(٢) المصدر نفسه ، ٤٠

الكتاب الثالث

-----

القاضي الفاضل النائر والشاعر

-----

الفاضي الفاضل الفائز

صورة موجزة لحال النثر قبل القاضي الفاضل

١ - النثر في المشرق الاسلامي

عرف السجع ، احد عناصر الكتابة الفنية ، في النثر العربي منذ العصر الجاهلي (١) ثم ظهر ظهورا واضحا في القرآن والاحاديث النبوية وخطب الخلفاء (٢) فيما بعد وظل ملازما للكتابة العربية يظهر فيها بين آن وآخر على ايدى بعض الكتاب حتى اصبح عاما بين الكتاب في نهاية القرن الثالث للهجرة . (٣)

اما في القرن الرابع فبرزت عناصر فنية أخرى الى جانبه على اقلام جماعة من الكتاب ظهورا في الامارات الفارسية المنفصلة عن جسد الخلافة العباسية (٤) آثروا البديع واظهروا اعتناء بالمحسنات اللفظية والمعنوية ، وأسرفوا في توشية الكتابة بفتون التورية والموازنة والمطابقة والمجانسة ، والتزموا السجع في جميع الرسائل ضمنوا رسائلهم ابياتا من الشعر والنثر كما ألفوا في موضوعات خاصة كالغزل والمسديح والهجاء والفخر والوصف . (٥) اشتهر من بينهم ابن العميد الذي جمع في نشره

(١) المقدسي ١٤١٤

(٢) مبارك : ٧٠٤١

(٣) ضيف : ٨٩

(٤) مبارك : ١٠٥٤١ ، ١٠٧ ، ١١٠٤ ، ١١٢٤

بمن طريقة العصر السابق له ، والطريقة الجديدة المبنية على التأنيق (١) فاهتم في نشره بالسجع القصير المتوازن ، والجناس ، والطباق ، والتصوير ، وضمن رسائله بعض ألفاظ القرآن وبيانات من الشعر . وتغارب في اشاراته التاريخية واللغوية والعلمية . (٢) والمصاحب بن عباد (٣) الذي اعتمد في رسائله الى حد بعيد على البديع ولجا في حالات عديدة الى استعمال الالفاظ ذات الحروف الضخمة ، حروف التخميم والاطباق كالقاف والضاد ، والظاء ، والصاد ، والطاء ، ليجعل لكلامه جلجلة ورنينا (٤) وابواسحق الصابي (٥) الذي اعتد في تكلفه اكثر من زميله . وكان لهؤلاء الكتاب وغيرهم من قلدوهم يد في تحويل الكتابة الى تحف نفية خالصة يراد بها قبل كل شيء ان تعبر اجمل تعبير عن كل ما يمكن مسن زخرف وحلي وتنميق . (٦)

وظهرت في فترة غير بعيدة من هذه مجموعة أخرى من الكتاب لم يكتبوا بالخصائص الفنية التي استعملها هؤلاء الكتاب فراحوا يسرفون في استخدام البديع

- 
- (١) المقدسي ، ٣٦٢ ، ١
  - (٢) المصدر نفسه ، ٢٦٦
  - (٣) فارسي الأصل ، وزير لمؤيد الدولة وفخر الدولة ، من حكام البويهيين حتى وفاته عام ٣٨٥ . وكان تلميذ ابن العميد . ياقوت ، ٦ : ١٧١
  - (٤) مقدمة رسائل الصاحب
  - (٥) ابراهيم بن هلال الحراني ، تولى ديوان الانشاء ببغداد عام ٣٤٩ هـ ابن خلكان ، ١ : ٣٤ ، ٣٥
  - (٦) ضيف ، ١٠٩

ويعقدون اساليبهم ويعتنون بوحدة النافية في كثير من الأحيان ، ويلجأون الى التهويلات والمبالغات ، ويسرفون في الاعتماد على الطباق والجناس ومراعاة الفظير بين الالفاظ والكلمات ويستعملون الغريب من الالفاظ ويكثرون من الأمثال والاقتباس عن القرآن (١) كأبي بكر الخوارزمي (٢) وديع الزمان الهمذاني (٣) وقابوس بن وشكبير (٤) نفسحوا المجال لغيرهم من كتاب العرب لتقليد هم واضافة عنصر التعقيد الى الكتابة العربية بعد هم بأجيال .

#### ب - النثر في مصر

بدأت أهمية النثر تظهر في مصر مع ظهور ديوان الافشاء فيها زمن احمد بن طولون (٥) الذي استكتب ابن عبد كان (٦) وجاء ببعض الكتاب

- 
- (١) تراجع بعض رسائلهم في بيئمة الدهر للتحالبي ، ٤ و ١٦٧
  - (٢) ولد وقشاً في خوارزم ، واستقر في نيسابور حتى وفاته عام ٣٨٣ هـ . التحالبي ١٢٣ و ٤ .
  - (٣) ابو الفضل احمد بن الحسين ، من اهالي همذان ، اشتهر بمقاماته الاربعمائة التي كتبها وتوفي بهراة عام ٣٩٨ . المصدر نفسه ، ٣٦٧ .
  - (٤) كان صاحب جرجان وطبرستان ، اشتهر بترسله وتوفي عام ٤٠٣ هـ ( ياقوت ١٦ ، ١٩ و ٢٢٠ ) .
  - (٥) ولي الحكم بمصر عن المعتمد عام ٢٦٦ هـ وبقي فيه حتى وفاته عام ٢٧٠ هـ . ابن خلكان ١٥٦ .
  - (٦) ابن عبد كان ، ابو جعفر محمد بن اخيد بن مودود ، من اشهر الكتاب زمن احمد بن طولون . القلشندي ١٥٠ .

من العراق لمعاونته في الكتابة ن زاد في اهمية الديوان وأثره . (١) ولم يخرج ابن عبد كان في أسلوبه عن الكتاب المشرقين ، فقد اظهر اعتناؤه بالسجع القصير والازدواج (٢) وتضمن رسائله آيات من القرآن ، واهتمامه بالتصوير . كما وضع اصول الابتداءات في الرسائل وافتتاحاتها ، واصل اختتامها وعنواناتها . (٣)

وفي العهد الفاطمي عظم امر الديوان ، واهتم به الخلفاء وراحوا يختارون لرئاسته خيرة الكتاب المسلمين والذميين حتى انتهى عهدهم ورئيسه القاضي الفاضل الذي استمر عليه حتى نهاية عهد صلاح الدين . (٤) وازدهر النشر المصري في هذه الفترة بازدهار ديوان الانشأ وظهور عدد كبير من الكتاب لم نستطع ان نتبين مذاهبهم الفنية في الكتابة لفقدان آثارهم . (٥)

اما خصائص شركتاب هذه الفترة بوجه عام فمشاركة بينهم وقائمة على التزام السجع ، والافتباس من القرآن ، والمبالغة في استخدام الزينة اللفظية والمعنوية . فقد اصبح الكتاب يفرقون في المبالغة حين يحاولون تشخيص المعاني ، ويولعون باستخدام الجناس ، ويكلفون في تركيب جملهم بعناية النظر ، وهي الخصائص التي اهتمت بها الكتاب المشرقيون من قبل . غير ان الكتاب الفاطميين اختصوا بالمقدمات الطويلة

(١) الفلغشندی : ٢٩٤١١

(٢) رسالته في صبح الاعشى : ٧ ، ٥ ، ٦ - ضيف ، ١٨١

(٣) الفلغشندی : ١٦٥٦٨

(٤) السيوطي : ١٤٦٦٢ - ١٤٢

(٥) حسين - ٣١٦



التي كانوا يبدون بها رسائلهم وسجلاتهم ، ان دعتهم عقيدتهم الدينية ومدحهم  
الفاطمي ان يبدوا الرسائل والسجلات بالحمد لله ، ثم الصلاة على النبي وعلى  
الوصي والائمة من اهل البيت " . (١)

اما اشهرنا ترى هذه الفترة فابن ابي الشخبا (٢) الذي

قيل ان القاضي الفاضل استمد من رسائلهم وحذا حذوه في الكتابة . ويلاحظ من  
رسائله القليلة المحفوظة في معجم الآداب وجمهرة الاسلام المخطوط اعتماداً في نشره  
على السجع والازدواج واعتناءه بالجناس التام والناقص بكثرة ، وتضمن الشعر في رسائله  
واقتراساته عن القرآن واهتمامه بالتشخيص والاستعارة والتصوير ، فهو يقول في احدي  
رسائله " وصلت رفعة مولاي والصيح قد سل على الأفق مقضبه ، وازال بأنوار  
الغزاة فيعبه ، فكانت بشهادة الله صبح الآداب ونهارها ، ونهار البلافة وازهارها ،  
قد توشحت بهروب من الفضل تقصر قاصية المدى ، ويجرى به في ضمار الآداب  
مغرداً " .

فكان روض الحسن تنشره الصبا فاطلت من قرطاسها الصفح (٣)

(١) حسين ٣١٤٤

(٢) الحسن بن محمد بن عبد الصمد بن ابي الشخبا ، العسقلاني ، كتب في ديوان  
الرسائل للمستنصر ، توفي ٤٨٢ هـ " ياقوت ١٥٢٤ " ، ابن خلكان ٣٦٤١

(٣) ياقوت ١٥٢٤

وفي أخرى يظهر براعته بالجناس بقوله " ونبه منه هوازن ، وظهرت مزينة ومازن ،  
ضحك لعيس عابس الدهر ، وراحت للكلالة الكلمة كاملة الفخر ، وزادت مغالظ الأزد  
ونشرت قهيرا عن بلوغ المجد ، واخذت سيوف بني غامد ، وصارت همدان كاللجج  
كالجمر العمامد (١).

ومن خصائص أسلوبه أيضا استعماله بعض الفاظ العلوم واللغة في

رسائله . وسار على نهج ابن أبي الشخبة في النثر كتاب الدواوين الذين طوه كابن  
الصيرفي (٢) وابن فادوس (٣) احد اساتذة القاضي الفاضل الذي اعتنى كثيرا  
بالطباق والجناس والتصوير والتشخيص والتورية والاستعارة والتشبيه وتضمن الشعر ،  
وموفق الدين ابن الخلال (٤) الذي تدرب القاضي الفاضل على الكتابة الديوانية بدار  
بن يديه . وهو يعتني أيضا بالمحسنات اللفظية والمعنوية كثيرة من كتاب عصره وسابقيه  
ويشخص المعاني ويضمن رسائله آي القرآن ، ومن نشره للتشيل ، قوله في سجله بتولية شارر :

---

(١) المصدر السابق ، ١٨٠ - ١٨١

(٢) علي بن منجب الصيرفي - اشتغل في الكتابة في ديوان الجيش والخراج ، وخدم  
الحافظ "ابن ميسر و٩٧" ، الفلقشندي : ٨ ، ٢٢٦ - ٢٢٧

(٣) كان في الكفاة ابو الفتح ابن فادوس . احد كتاب الدواوين في العهد الفاطمي ،  
توفي عام ٥٥٣ "ابن ميسر ٩٧٠٢"

وللقاضي الفاضل قصيدته في ديوانه في مدحه .

" وراقب الله فيما القاه اليك فقد فوض اليك مقاليد البسط والقبض، والرفع والخفض  
والولاية والعزل والقطع والوصل، والتولية والتصريف والمصرف، والامضاء والوقف، <sup>والخفض</sup> والوقف،  
والتعبية، والاحمال والتنويه، والاعزاز والاذلال " . (١)

يظهر لنا بعد هذا العرض السريع للنثر المصري انه متأثر بنثر  
ابن العميد ومدرسته الى حد بعيد، وانه مر في اطوار عديدة حتى وصل الى ما توصل  
اليه من التعقيد والزخرف على يد ابن ابي الشخبا في العصر الفاطمي، ولا يقتفي والفاضي  
الفاضل في العصر الايوبي . اذ اعتنى الكتاب الاول بالسجع والمحسنات اللفظية  
والمعنوية الا انهم لم يفرقوا فيها، ولم يعتمدوها كلياً في رسائلهم . وربما لو وصلنا عدد  
اكبر من رسائل الفترة السابقة لابن ابي الشخبا لتكنا من الاطلاع على خصائص النثر  
المصري بصورة أدق . وما وصلنا عن ابن ابي الشخبا يدل على تأثره بأصحاب <sup>الفاضي</sup> /  
البيديع الشرقيين في التأنيق في الرسائل واعتماد المحسنات . اما الكتاب الذين  
تلوا ابن ابي الشخبا فلم يصلنا من نشرهم سوى قليل من سجلاتهم الرسمية التي لا تعطي  
فكرة كافية لاصدار حكم على اسلوبهم . وهم على كل حال يقتفون اثر ابن ابي الشخبا  
بزخرفة اسلوبهم .

---

(١) القلقشندي ١٨٠ / ٣١٦ و ٣١٧

نثر القاضي الفاضل

يتبين لنا مما تذكره بعض المصادر ان القاضي الفاضل ألف في ابواب عديدة في النثر ، وانتج عددا ضخما من الرسائل ، فهل ان ما جمع منها يزيد على الخمسين مجلدا (١) وان ما لم يجمع من مسوداتها لا يقل عن المائة مجلد . (٢) هذا عدا عن مذكراته السنوية التي سماها بالمتجددات ، وتعليقاته على المتجددات التي لم يصلنا منها سوى قطع قليلة حفظها المقرئ في خطه ، ومقاماته التي تفرد الصفدي بذكرها في كتابه نصره التاثر على المثل السائر ، وقال انه اراد بها معارضة مقامات الحريري ووضعت ثلاث عشرة مقامة منها عارض كل فصل بمنهله حتى جاء الى قول الحريري في المقامة الثالثة عشرة ، اعلموا يا ما آل الامل وشال الارامل اني من سروات القبائل وسريات العقائل ولم يزل اهلي وبعلي يحلون الصدر ويحسون القلب ويحسون الظهر ويحسون اليد ، فلما اردى الدهر الاعضاء ، ونجع بالجوارح الاكباد ، وانقلب ظهر البطن نبالا الناظر وجفا الحاجب وذهبت العين وفقدت الراحة ولم يبق لنا تينة ولا ناب ( فذا ) غير العيش الاخضر وازهر المحبوب الاصفر اسود يومي الابيض وابيض يومي الاسود حتى رثي لي العبد والازرق فوجد الموت الاحمر . فقال القاضي الفاضل ، من اين يأتي للانسان بفضل يعارض هذا ثم انه نطع ما عمله من مقامات ولم يظهرها . (٣)

(١) الفاضل بن النويري : ٥٠٤ ، ٨

(٢) المقرئ : ٢ ، ٣٣٦

(٣) الغزولي : ٢ ، ١٢٢

أما ما وعلنا من رسائله فقليل جدا بالنسبة لما وصفه المؤرخون ، وحفظ بعضها في مجموعات لم تنشر بعد ، قام بجمعها ونسخها بعض الكتاب المتأخرين ، أمثال جمال الدين ابن نباته (١) الذي جمع بعض رسائل القاضي الفاضل في كتاب أسماه "الفاضل من كلام الفاضل" ، وموفق الدين الديباجي (٢) الذي نسخ بعض رسائله عن كتاب باسم "من ترسل القاضي الفاضل" ، ومحيي الدين ابن عبد الظاهر (٣) الذي نقل مجموعة باسم "الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم" ، وله مجموعة في مخطوط باسم "كتاب فيه من كلام الفاضل" نسخ بعد وفاته بحوالي تسعين عاما .

ويحفظ وحفظ قسم آخر من رسائله في بعض كتب التاريخ التي استشهد بها مؤلفوها على بعض أحداث العصر ، أمثال أبي شامة في كتابه "الروضتين في أخبار الدولتين ، النورية والصلاحية" وابن واصل في كتابه "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" ، وابن تغربردي في كتابه "النجوم الزاهرة" ، كما احتفظ مؤلفو بعض المصادر الأدبية بقسم من رسائله من بينهم القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى في صناعة الانشا" والتويري في كتابه "نهاية الأرب" وابن كثير في "البداية والنهاية" ، وابن خلكان في "وفيات الأعيان والغزولي في "مطالع البدر" ، والصفدي في "الغيث" وغيرهم .

(١) محمد بن محمد بن الحسن ، ولد سنة ٦٨٦ هـ وعاش تسلمن حياته في الشام ، ثم

انتقل إلى مصر حيث توفي عام ٧٨٦ هـ اشتهر برسائله وخطبه وشعره Brockleman, "Ibn Nubata"

(٢) من كتاب الانشا في آخر العهد الايوبي ، زمن الملك الكامل بن أيوب Ency of Islam, 2, 407

(٣) من كتاب الدواوين في مصر . اشتهر بترسله ، وتوفي عام ٦٩٢ هـ "الكتبي / از ٤٥١" .

وتنقسم رسائله الى فئتين ، رسائله الديوانية ، التي أصدرها عن ديوان الانشاء في آخر العهد الفاطمي والعهد الصلاحي ، والاخوانية التي كاتب بها اصداقاً ، حتى وفاته .

رسائل القاضي الفاضل الديواني

١- العهد والسجلات

أصدر القاضي مجموعة من السجلات والعهد عن الحكام الفاطميين في آخر عهدهم ، وصلنا منها همدان بتولية الوزارة لأشد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٤ هـ ، اضاف لهما الشيال عهدا ثالثا بتولية الكامل بن شاور تيا به الوزارة عن ابيه اثناء الحملة الصليبية الثالثة على مصر بقيادة عموريه أورده . القلقسندى على انه لموفق الدين ابن الخلال ، ونسبه الشيال الى الفاضل محتجا برأيه انه عندما حاصر الفرنج القاهرة وضايقوا اهلها وتفقروا مع شاور على تعب تعجيل مائة الف دينار لهم ، أرسل الخليفة العاضد القاضي الفاضل الى ابن الخلال ، وكان مريضا والفاضل ينوب عنه ، بتعيين الكامل بن شاور ، فعرض على الفاضل ابى ابن الخلال ورضى ما تقرر عليه ، ويؤكد الشيال ان كاتب هذا السجل القاضي الفاضل ، لا يخلو لان ابن الخلال كان مريضا حسب ما ورد في النص ، وان الفاضل كتب السجل بتعيين

اسد الدين شيركوه وزيراً بعد نصف شهر في ١٩ ربيع الأول عام ٥٦٤ هـ . (١) وهذا نستطيع ان ننسب الى الفاضل ثلاثة جهود بتولية الوزارة . وله جهود أخرى بتعيين ولاية لشغر الاسكندرية ، وقضاء لبعض المدن والشعور ، ووال للحسبة ، وياقظاع اراض الى احد الامراء ، واحد الوزراء . ووصلنا عنه في العهد الصلاحي مشهور بتغيير السنة القبطية الى هلالية .

حافظت سجلات القاضي الفاضل على شكلها وصيغتها الرسمية المعده

لها زمن الفاطميين من حيث افتتاحها واختتامها . وحافظت على نقل المادة المطلوبة منها فيها . كما كشفت ضمن طياتها الرسديه عن جانب من سياسة الفاطميين الدينية والاجتماعية والسياسية . فهي بشكلها الرسمي وذكرها المتكرر للخليفة الفاطمي ونسبه وازافه بعض الصفات الخاصه له تدل على شيء من المعتقدات الفاطمية - وما كان يفرضه الخلفاء الفاطميون حول أنفسهم من عظمة وجلالة . وعلى مدى اهتمامهم بأمر الدعاة للفاطمية . كما تدل على أهمية مركز القضاء والحسبة ، ومعاملة الفاطميين لأهل الذمة واهتمامهم بأمر المساجد وبالفتيا والعلماء والقراء والمؤذنين ، كما تكشف عن جانب من جوانب الحياة الاجتماعية انتشرت خلاله الفوضى في آخر عهد العاضد . فالرعايا ، كما يذكر القاضي الفاضل ، في سجله بتولية اسد الدين شيركوه وزارة الدولة المصرية - بحاجة الى الاستقرار والطمأنينة . بعدما عطف عليهم من اجحاف الجبايات واسراف الجبايات ، وتوالى عليهم من ضرب النكيات . (٢) زمن الوزير شاور .

(١) الشيال ١٧٠ هـ ١

(٢) الفلتسندي ١٠٣ هـ ٨٩ - ٩٠

وتشير في حالات عديدة الى بعض الاحداث المياسية كهبه اسد الدين شيركوه  
لنصرة الخليفة الفاطمي ضد الفرنج وشاور ، وعن مجيئه فظ المتكرر الى البلاد وخلافه  
مع شاور ، حيث يقول " واجليت طافيه الكفر وسواك اجتذبه ، وصدفت الله سبحانه  
حين داهنه من لا بصيره له ، وكذبه ، واندمت على الصليب وجمراته متوقدة وقاتلت  
اوليا الشيطان وقراته منمره ، وما يوبك في نصرة الدولة بواحد ، ولا امك مجسود  
دأبة رقم انف الجاحد ، بل اوجبت الحق بهجرة بعد هجرة ، واجبت دعوه الدين  
قائما بها في قمره بعد غمره " . (١) ويذكر فيها ايضا اشارات الى ظلم شاور  
الذي " تادى في ضلالتنا ، واستمر على استطالته ، واجتاح للدولة رجالا ، وضيق  
من ارزاقهم مجالا ، وسلب من خزائنها ذخائر واسلحة واموالا ، ونقلها من ايدي  
لولا اولياتها الى اعداء الله " . (٢) ولا يخلو سجله لصالح الدين من اشارة  
الى الحالة الضطرية في الجيش المصري حين اصبح يتنازع الزعامة فيه عنصران ،  
المصري ، واوليا الدولة القدامى ، والشرقي جنود صلاح الدين " . (٣) حين يقول  
الفاضل لصالح الدين " واوليا امير المؤمنين ، وانصاره الميامين ، ومن يحف بنقام  
ملكه من الامراء المطوقين والاعيان المعصيين ، والامثال والاجناد اجمعين ، فهم  
اوليا وه حقا رساليك رقا ، والذين تهبوا الدار والايان سبقا ، وانصاره فربا ، كما  
ان عسكري انصاره شرقا ، وهم يد في الطاعة على من ناداهم ، يسعى بذمتهم  
ادناهم ، وتحكم فيهم وانت عند امير المؤمنين اعلامهم " (٤)

(١) الفلكندي / ١٠٠٤ ، ٨٤ - ٨٥

(٢) المصدر نفسه ، ٨٥

(٣) الشيال ، ١٧٦

(٤) الفلكندي ، ١٠٠٤ ، ٩٦



## ٢- الرسائل التاريخية

وسجل جزءًا خاصًا بتاريخ عصره في مجموعة من الرسائل أصدر  
قسماً عن ديوان الانشاء زمن العاضد عندما كان موظفًا في ديوان الانشاء ، وقسماً  
آخر زمن صلاح الدين حينما أصبح احد رجال الدولة الرسميين المظلمين على  
دقائق الموقف السياسي والاجتماعي والاقتصادي في البلاد ، والمسؤولين عن نقل  
الموقف وشرحه بدقائقه الى السلطان وذوي الشأن في البلاد الاسلامية . وقسماً  
ثالثاً زمن العزيز عثمان . فكان يسجل كل ما يقع له في البلاد بطريق رسميه عن  
ديوان الانشاء ، وبطريقة ودية خلال رسائله الاخوانية الى اصدقائه . نقدم لنا  
بذلك صورة حفيظة عما كان يجري في البلاد ، اول ما وصلنا عنها شرح الموقف بين  
العرب والفرنج في آخر عهد شاور ، وتخلف بعض القبائل العربية \* بنى جعفر  
وظلمة \* عن المشاركة في الجهاد و اظهارهم الشغب . ثم الخلاف بين شاور  
وأسد الدين شيركوه ومسرا الأخير الى الصعيد . وما قام به صلاح الدين من  
اصلاحات اولها اعلان الخطبة للعباسيين وفتوحات بعد توليه الحكم في مصر كفتح  
اليمن وبعض بلدان المغرب ، وشرح الموقف السياسي الداخلي المضطرب في البلاد  
الناجم عن ثورة بعض الفئات على العهد الجديد كثورة كثر الدولة وبعض الشيعة  
والقضا عليها . ثم انتقل مع صلاح الدين الى الشام ليسجل له كل ما كان يقوم به  
من فتوحات داخل سوريا برسائل الى الخليفة ببغداد والى بعض الأمراء المسلمين

وحكامهم في المغرب واليمن وغيرها ، وفزوات الى بلاد الفرنج ومعاركهم وانتصارات السلطان . مقداً بذلك صورة واضحة لتحركات السلطان واعماله حتى تمام ٥٨٢ هـ عندما انتهى صلاح الدين من فتح القسم الاكبر من سوريا وأخذ يعد العدة لاسترجاع فلسطين . فاسترجاع البلاد الفلسطينية من ايدي الفرنج فأرسل القاضي الفاضل الى مصر ليشرف على الادارة فيها ويخبره بما يجري في مصر من احداث داخلية ، وما يجري بين العرب والفرنج في الغرب ، وينقل في الوقت ذاته ما كان يخبره السلطان به من فتوحاته في فلسطين ليسجلها ايضاً ، فوضع في هذه الفترة الحاسمة في تاريخ المسلمين سجلاً كبيراً من الرسائل التاريخية ملياً بالحماس والغبطة لانهمزام الفرنج المتكرر ، وقوة الجيش والاسطول العربي ، وتوحد القوات العربية وولادة العرب بعضهم مع بعض ، ومع الفرنج .

ثم قدم سجلاً للحملة الصليبية الثالثة على فلسطين ، وصف فيها مجيء الفرنج وقوتهم وحصارهم عكا ومضايقتهم السلطان ووسائل حربهم باسهاب حتى استردادهم عكا .

ولم يتقف قلمه عن تسجيل تاريخ مصر بعد وفاة صلاح الدين ، ونوقف يشاهد انقسام البيت الايوبي متحسراً على انقراط العقد الذي ضحى صلاح الدين بحياته لجمع شتاته \* واما هذا البيت فان الابقا منه اتفقوا فملكوا ، وان الابناء اختلفوا فهلكوا واذا غرب نجم فما الحيلة في تشريفه ، واذا بدا تخريق ثوب فما يليه الاتزيفه . (١)

ثم انتقل الى مصر ليراقب ما كان يجرى فيها ، وفي الشام بين العادل والفرنج  
سجلا بذلك بطريق غير رسمية الى صديقه العماد .

وتطرق في بعض رسائله الى وصف الحالة الاجتماعية والاقتصادية في

البلاد في العصر الصلاحي عهد العزيز عثمان .

وتقع معظم رسائله التاريخية هذه في الفترة الواقعة بين عام ٥٦٤ - ٥٦٦ هـ

كتب القسم الأكبر منها بين عام ٥٦٤ و ٥٨٦ هـ اي في عهد صلاح الدين .

### ٣- الرسائل الاخوانية

تعرف القاضي الفاضل بحكم عمله ومنزله الى عدد كبير من وجهاء الدولة  
وكبارها ، من حكام وأمرأ ونبها وأدبا وعلما ، كان يصلهم بمكاتباته في مختلف المناسبات  
السعيدة ويعزى حين تلزم التعزية ويتشوق الى اصدقائه المقربين ويعاتبهم حين يتأخرون  
بالاجابة على رسائله اليهم ، مضيقا بذلك مجموعة من الرسائل الاخوانية الى اذ به .  
خص السلطان صلاح الدين وصديقه العماد الاصفهاني بقسم كبير منها احتفظت  
له المصادر بأكثرها ، ومن بينها عدد كبير في رسائل التهنئة الى صلاح الدين بمولوده  
الثاني عشر ، ومولود لابنه العزيز عثمان ، وبابلا له من مرض ألم به ، وبسطعه موطأ زين مالك  
في الاسكندرية ، وبحلول احد الاغبياد ، ومجموعة أخرى في التعزية كتبها الى اشخاص

من بينها رسالة الى الملك الصالح ابن نور الدين ، والى القاضي شرف الدين ابي ابن  
ابن مصرور في وفاة السلطان نور الدين زنكي ، والى السلطان صلاح الدين في احد  
اولاده ، والى الظاهر فايزي ملك حلب في وفاة صلاح الدين والى العادل في ابن له ،  
وفي العزيز عثمان ملك مصر ، والى بردويل ملك القدس بوالده ، وفي مؤيد الدولة ابن منقذ ،  
وحفظت له المصادر ومجموعات رسائله بعض رسائل التعزية لم يرد فيها اسم المعزى  
ولا المعزى به . وقد وصلتنا مجموعة كبيرة من رسائله في التشوق والعتاب وجه معظمها  
الى صلاح الدين الايوبي ، والعماد الاصفهاني ، وابن سناء الملك ، كما وصلتنا مقتطفات  
من رسائل اخوانية في موضوعات مختلفة ، في الكحالين ، وفي الزكاة وفوائدها ، وفي استعمال  
الحمام للبريد . ورسالة مستقلة في وصف دمشق .

### طريقة القاضي الفاضل الانتسابية

رأينا القاضي الفاضل يبحث في فترة موضوعين مختلفين ، احدهما الديواني ،  
يعتمد على الوصف الخارجي وتسجيل بعض الأحداث والوقائع ، ووصف الممارك ، يحتاج  
الى الكثير من دقة الكاتب ولقائه <sup>دبائته</sup> ومقدرته على التفاعل بهذه الأحداث والحس بها  
وتفسيرها ونقدها لينمكن من اظهارها بمظهر يوحى بقيمتها بالنسبة للعامة والنسبة  
له ، والثاني الاخواني ، وهو عبارة عن تنقيسات تابعة من اعماق الكاتب ليس لها  
علاقة خارجية بأى شيء آخر ، محورها تبادل العواطف والمشاعر بين الكاتب وقبره من  
الاصدقاء ، يعبر فيها الكاتب عن مشاعره بصدق واخلاص مرسلًا نفسه على سجيته ،

دون تكلف أو تصنع ، ودون تفكير بالعبارات المنمقة والصورة المزخرفة ، لكن هل نجح  
القاضي الفاضل في إبراز قيمة هذين الموضوعين ؟ لا اعتقد ذلك ، لأنه عاملهما  
معاملة متساوية من حيث الأسلوب ناسيا مادتهما وناسيا في الوقت ذاته ، نفسه  
ودورها في عمله الأدبي في كل منهما . فكان في رسائله التاريخية أسلوبيا إلى حد  
بعيد بحيث جعل الفن يطغى على التاريخ ويفقد الكثير من قيمته ، ومن الدقة  
فيه إحدى أسس كتابته فضح بها في بعض الأحيان في ثنايا تجميل العبارة  
وأخراجها بشكل متائق وأفقد باهناماه الشديد بالأسلوب قيمة بعض الفتح التي  
كان لها معنى كبيرا بالنسبة له ولغيره ، ولم ينقلها ببساطة وسهولة يعف روعتها  
وقيمتها ليضيف اليها <sup>قيمتها</sup> كمشاهد عيان ، وقيمتها لصدورها عنه ، نسي قيمة دورها <sup>في</sup> كل  
هذا واعتنى بالصورة العديدة والتشابه والكلمات الطنانة التي طغى على السطوح الهامة  
الموجودة في أغلب رسائله وجعلتها متصنعة متكلفة . وها هي رسالته في فتح القدس ،  
ذلك الفتح الذي طالما انتظره المسلمون وطالما تمناه القاضي الفاضل ، حيث كان يجبان بصوره  
ويبرز روعته وقيمته وانفعاله هو فيه ، يكتبها بأسلوب منق لا يستطيع كل شخص من  
فهمها وتحليل صورها ، كقوله في أحد فصولها " وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله  
بالعدو الذي تشظت فئاته شققا ، وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه <sup>سيفه</sup> زمار عما عودعت  
حصاته وكانت الأكثر عددا وحصا ، فكلت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان  
عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان ، وفضت عينه وكان عيون السيوف دونها كسيفة ،  
ونام جفن سيفه وكانت يفظته تريق لظف الكرى من الجفون ، وجدعت انفخ انوف رماحه

وظالما كانت شامخة بالمنى اوراعفة بالنون . . . . . وقدم المنجنيقات التي تتولى  
عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوترهم نسيها التي تضرب فلاتفارها سهامها  
في ثنايا شرفاتها سواك ، وقدم النصر نسرا من المنجنيق يخلد اخلاقه الى الأرض  
ويعلو علوه الى السماك نشج مرادع ابراحها ، واسمع صوت عجيجها ، ورفع  
شارعاجها . . (١)

ولعله ظن انه يستطيع ان يؤثر على قراء رسائله وسامعيه بقدرته  
الفنية واجادته ايراد الصور العديدة المتلاحقة ، لكنه اخطأ . وليته عامل رسائله  
التاريخية هذه معاملته لمتجدداته او مذكراته السنوية ومياماته التي كتبها  
باسلوب بسيط منفسا فيها عن تأثره بها ، وموردا بها صورا حقيقية شاهدها ،  
بطريقة لطيفة تجعل القارئ يشارك رؤياها وينفعل معه فيها حيث لا تكلف هناك ولا  
تصنع ، بل كتابة أقرب الى السهولة والفهم والذوق . ولعله كتبها بهذه الطريقة  
علما بأنه يحتفظ بها لنفسه لا ليقرأها حکام العصر وادباءه ويحاسبونه على اسلوبه فيها .  
وأغفل القاضي الفاضل قيمة موضوع اخوانياته وكتبها باسلوب لا يختلف عن  
اسلوب الرسائل الديوانية ، وهو وان كان له عذر في كتابتها في هذا الاسلوب ، فهو  
عدم مسؤوليته تجاه قرائه من ناحية الدقة التي كانت تتطلبها الكتابة التاريخية ، فغير  
ان هذا لا يعني انه نجح كثيرا في كتابة رسائله بهذه الطريقة فقد نسي شاعره الحقيقية

---

(١) التلغشندى ٥٠٦ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ - ٥٠٦

بل تناسها في غالب الأحيان عندما لجأ إلى التهويل والتكثير والاطناب وادخال  
الشعر والاشارات المختلفة في رسائله ، ونسي علاقته الشخصية بأصدقائه بأصدقائه  
الذين كان يخاطبهم ، وضرورة ظهورها على حقيقتها لتنتقل مشاعره إلى أصدقائه  
فيشاركوا أياها . أفقل كل هذا وأنت معظم رسائله هذه سمة الصدق والعاطفة  
والروح توام الكتابة الأخوانية . فاسمعه يصف مشاعره عندما استلم كتابا من العماد  
يقول فيه : ولما وقف عليه العبد خر كما خر موسى صعفا ، وخلفه بدم من دمع  
شوقه وخليق أن يكون ما ( ٠٠٠ ) عن تلك اليد غلغا مغلقا ، واستعاد من كالمسحوق  
الدهر ساعة وصول الكتاب ساعة زهول عن الاكتتاب ، وحلت لي الخمر وكنت أمرا ،  
وقضت له أمنية أبي العلاء فجهل كيف اطمانت ، إلا أنه رأى ما لم يره وهو مغاني  
اللوى من شخصك اليوم اطلال ، ثم عادت الخواطر الخواطل ، واستجدت الأجناس  
المواطر لا المواطل ، وقالت هل الكتاب إلا ثمرة ذكر اقتطفتها من الورق ، وخیال  
حبيب أفرى بك الأرق ، ولو لم يكن طيفا لما زارك في ليل مداره ، ولا زاد قلبك  
وادعى أنه من عواده " (١) والامثلة على هذه المبالغات والمشاعر المخفية في  
غلاف التصنع هذا عديدة .

ومع هذا فقد تقبل العصر اسلوبه البديعي هذا واعترف له بفضل السبق  
فيه ومدحه الجميع وعلى رأسهم صلاح الدين ولعلمهم رأوا في اسلوبه في تلك الفترة  
ذروه الكتابة الفنية ، إلا أنهم كانوا متأثرين إلى حد بعيد بالبيئة .

---

(١) الفاضل من كلام الفاضل ، ٣٢ - ٣٣

خصائص أسلوبه

١ - البديع

أ - المحسنات اللفظية

اتخذ القاضي الفاضل البديع مذهبا في كتابته ، فأكثر من استعمال  
المحسنات اللفظية والمعنوية والاشارات والانتقاسات والتضمينات التي أرقق بها رسائله  
وأبعدها عن ذوق قارئها ، " في عصرنا الحاضر خاصة " وجعل فهمها متوقفا  
على جماعة من المثقفين .

واتخذ من السجع اطارا عاما لرسائله نوع فيه وتفنن في استعماله  
بين مرصع ومزدج ومتوازي ، وطويل ، وقصير ، حافظ فيه في أغلب الحالات  
على الوزن والموسيقى والقافية مظهرا براعة في استعماله . فمن سجعه القصير المرصع  
قوله " رحيق النوا" وقطبه ، وروح جسد الاجلال ، وقلبه ، وحلى معصم الصفا" وقلبه ،  
أدام الله جماله ، وضاعف جلاله ، وحرس من الغير ظلاله ، وبلغه سؤاله وآماله ،  
وأحسن منقلبه وعباه وآله ، ولا زالت اوقاته مقرونة بالحبور ، وساعاته مصروفة  
بالسرور " . (١) ومن سجعه الطويل قوله " وصلني كتاب فظلت من حالتيه  
بين حالين من احوال الجنة ، ظل من خطه ممدود وما من لفظه مسكوب ،

---

(١) الدر والنظم من ترسل عبد الرحيم " مخطوط مصور " ورقة ١



وبين حالين من احوال أهل النار ، وعذاب شوق غالب وهزم مغلوب ، فسيحان من جعل  
آراءه في الكلمات مصابيح ، وفي المنكلمات مفاتيح ، وريده اذا امتطت الاقلام بارت  
الغفر الغمام ، واذا اتشحت بالاعنة بارت الريح . (١)

وأظهر اعتنا شديدا بالجناس فبعثه في معظم رسائله واستعمله تاما

وناقضا ومشتقا <sup>مظهرا</sup> واصلا فيه الى درجة من التكلف في بعض الأحيان كقوله :

" لا زال سابع (٢) العطاء ، سابع (٣) العطاء ، ظاهر الجلال ، ظاهر الخلال ،

وسيع المجال ، وشيع (٤) الحال (٥) ، مكبوت الاعداء ، مكتوب الاعداء (٦) ، يحصل

الاسلام منه بالسهم النافذ النصور والشهم الناقد البصير . (٧) حيث جانس

مجانسة تصحيف واظهر كلمات كل سجعتهن بمظهر واحد <sup>كلمة</sup> اذا ما جردت من

نقاطها (٨) وقوله في رسالة اخرى حيث جمع بين الجناس الناعم والمشتق : " ولا

زالت اوقاته مفرونة بالسرور وساعاته مصروفة بالحبور ، شوق المحائم (٨) الولهان الى

لذيذ الرصال ، والمحائم (٩) العطشان الى الماء الزلال ، وحنيني اليه حنين الابل

الى اعطائها (١٠) ، والغرباء الى اوطانها ، وكلفي به كلف الساهر الحائر الى تبلج وجه الصباح ،

(١) المصدر السابق ، ١٠

(٢) من فعل سوغ ، السائح العذب

(٣) من فعل سيع ، اي كامل واف

(٤) من فعل وشع ، وشع الثوب اي رقه بعلم ونحوه

(٥) منجنون يستقى عليها

(٦) النصرة والمعونة

(٧) من ترسل القاضي الفاضل ، مخطوط مصور ، ورقة ٣٧

(٨) من فعل هوم ، والذاهب على وجهه

(٩) من فعل يدور حول الماء بسبب عطشه ، ولا يجد ماء

(١٠) مبرك الابل حول الحوض ، والعطن بالنسبة للجمل كالوطن للناس .

والكلف بحميا الراح الى ارتشاف شعور الأقداح ، بل كشوقه الى اعتلاق المعالي  
واعتنافها ، واصطباج كاسات المكارم واعتبافها ، وكيف لا أذرب شوقا اليه وحنّة عليه  
وقد فارقت منه الطائر الميمون الذي لم أزل أقابل منه كل يوم طائر اليمن والاقبال  
والوجه الكريم الذي يجمع بين الجمال والاجمال \* (١) . نجاس جناسا مطرفا بين  
الهائم والحائم ، واعطان وأودان ، واعتناق واعتباق واعتلاق . وجناسا مذيلا بين  
الجمال والاجمال ، وجناسا اشتقاق بين اليمن والايمان .

ومن انواع الجناس الأخرى التي استعملها في شعره ، الجناس المركب  
كقوله \* والشرق يهتدى بأنواره ، بل ان ابدى نورا من ذاته هتف به الغرب بأن  
واره \* (٢) حيث جانس بين كلمة انواره جمع المصدر " نور " وبين ان واره ،  
الفعل ، بمعنى أخفه ، وقوله في أخرى ، فعدل الى منجنيقه التي أمل صاحبها  
منها منجنيقه \* حيث جانس بين كلمة منجنيق ، إحدى الآلات الحربية ،  
ومنجنيتي (٣) . والجناس المعكوس كقوله \* مع من انضم اليهم من الفاف واظراف  
وأوشاب وأوشاش \* (٤) حيث جانس بين أوشاش وأوشاب .

(١) الدر النظيم ، ورقة ١٢

(٢) ابوشامة ، ٢١ ، ٤٠

(٣) النيق أرفع موضع في الجبل

(٤) القلقشندي ، ٦١ ، ٥٠٧

ولم يكتب القاضي الفاضل في نشره بالسجع والجناس، وكانه اراد ان تكون كل رسالة من رسائله قطعة مستقلة من الزخارف والتنسيبات التي راح يستند لها من ثقافته الدينية والأدبية والتاريخية وبحشرها في رسائله حشرا بحيث يرى القارى لمعظمها مجموعة من آيات القرآن المضمنة هنا وهناك، ومن الفاظه ومعانيه المنتشرة في مواضع عديدة من رسائله، وأبياتا عديدة من الشعر المنظوم والمثور، بعضه من نظمه وبعضه مقتبس عن غيره من الشعراء، وبعض الفاظ العلوم واللغة. كما يلاحظ كثرة الاشارات الى ائمة انبياء وأشخاص ومعارك واحداث حصلت في الاسلام.

ومن امثلة تضمينه للقرآن قوله في احدى رسائله \* ولقد ذكرنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادى الصالحون \* سلام قولا من رب رحيم \* فروح وريحان وجنته نعم \* وصلاة يتبعها تسليم، وكأس يمزجها تسنيم، وذكر من الله سبحانه \* (١) حيث تدرج من القرآن الى ما يريد نشره محافظا على وزن القرآن الذى بدأ به. ومن اشاراته الى بعض الفاظ القرآن قوله \* سعد لا يصوح عنه المرتع الأخضر، وأمن لا يحزنه الفزع الأكبر، مطاع ينفاد بتصريفه الأبيض والأسمر، محبوب القلم حتى لو عاداه السيف لقيل ان شاتك هو الأبتى \* (٢) تصرف بألفاظ القرآن بقوله \* ان شاتك هو الأبتى \* واحتاجت اشاراته الى معاني القرآن عديدة كقوله \* وصل الكتاب الشريف فأدرك به غايه الحرص وكان كيمقوب اذا بشر بالقمي، ووقف له عليه وهلم ما تضمنه وأشار اليه \* (٣).

(١) المصدر السابق، ٥٠٨٦٦

(٢) كتاب فيه من كلام الفاضل، ١٨٦

(٣) الدر المنظوم، ٢٢٥ ورقة ٢٠

ومن اشاراته الى الفاظ اللغة قوله \* قاله يعيد ليالي كانت بقره  
اسحارا بل نهارا ، واياما بقيت في خدمته مواسم بل أعيادا كبارا ، وان تسمح  
الأيام بذلك فرما هسى وذن يدنو بهم ولعلما ، وأرجو ان يكون ذلك قريبا \* (١)  
وقوله \* والله يفتح من بلاد الكفر كل مبني على الضم \* . والى بعض المصطلحات  
فلا اللغوية قوله \* وكيف لا يكون ذلك وقد فارق العالم المجمع في واحد ، والمجد المنتظم  
في شاهد ، وبنيان الكرم المستقل بشائد ، والمنفوس كالأسط ، لا يتم الا بصلة وائدة \* (٢)  
والى بعض التعابير البلاغية قوله \* وانكرت كثيرا ما كنت اعرفه مني  
ومن الناس ، وتناوبت علي النوائب من مجفئ ومطهر ، فلا تسلم عن سواد في القسب  
وبياض في الرأس \* . (٣) والى بعض غزوات المسلمين قوله \* ولكن اشيرة الى انه  
مكان الغزاة ومقرها ، ومستودع الفريضة ومستقرها ، ومجاورته لتبوك وجزانها آخر الغزوات  
النبوية ، والى طريقه انتهت الخطى الحميدة المحمدية \* . (٤) ومن اشاراته الى احداث  
واسما وردت في الأخبار والقصص الديني قوله عن أسرى المسلمين \* وكانوا في سجون اهل  
الخلافة التثليث كيونس في الظلمات الثلاث ، وكيوسف الا انهم في عقله فضب الذكور  
لا في عقله طرب الاناث ، وعلى فوهه الجب شقه باب لا يأذن الليل في ابتسامتها  
عن نهار \* . ويقول فيها ايضا \* فما طال جناح الجنح ، واستنار مصباح الصبح الا

(١) المصدر السابق ، ١٢

(٢) من ترسل القاضي الفاضل ، ٥٥ - ٥٦

(٣) كتاب فيه من كلام الفاضل ، ٢٦٣ - ٢٦٤

(٤) الفاضل من كلام الفاضل ، غير مرقم

والربوبية قد اجارتهم من الديوية ، وبياض يد الليلة يخبران العانوية (١) اشار  
في قطعه هذه الى النبيين يوسف ويونس ، والى العانوية احدى الديانات  
الفارسية . ومن العذرة اشارة الى بعض ادباء العرب قوله وراى ما لو انشدة  
ابن حجر لمار كالحجر ، وما لو قيسين قس لعلم انه ما بعث أمة واحدة  
الا انه حجل واستتر ، ولا لوم عليه لوسم ونظر " ، فاشار الى امرى القيس  
الشاعر الجاهلي وقس بن ساعدة الخطيب الجاهلي ايضا .

وقد جره ولعه بالشعر لان يدخله بكثرة في نشره بحيث يطفئ في بعض  
الحالات على الصورة النثرية للكتابة ، كما وصل به تكلفه في استعماله ان انشا رسائل  
على أبيات من الشعر مضافة الى قرينة من النثر ، وانصاف أبيات من الشعر مضافة الى  
قرينتها في النثر ، وكان يركب احيانا قرينة كاملة من النثر على بيت او نصف بيت من الشعر .  
فمن امثلة تضمينه الشعر في نشره قوله في ثلاثة كتب وصلت من العماد  
" فلكه درها ثم لأليانها درها ثم لاعدائها دروها ، لقد أثرت فنشرت في القرباس  
جواهر مددت اليها يد الالتقاط وتزينت عيني في اوسع من صدرها وتركت خاطري  
في اضيئ من سم الخياط ؛

واخذت اطراف الكلام فلم تدع فولا يقال ولا غريبا يدعى

فهي بين غوص وترق ، هذا يثير الدر وهذا يثير الدراري ، وهذا يتبلج في هين  
السوار المصوفة وهذا يتبرج لاعين السواري ، وذكرني هذه الكتب ثلاثة ابي تمام ان يقول ؛

بثلثة كتلته الراح استوى لك لونها ومذاقها وشميها  
وثلثة الدلو استجيد 'الماتح' اعرادها ورشاها واديها (١)

لقرينه  
ومن تضمينه البيت من الشعر لقرنيه من الفسوقه :

وصل من الحضرة

كتاب به ما الحياة ونفعه ال حيا فكأنني اذ ظفرت به الخضر

فوقفت منه على

عقود هي الدر الذي انت بحره وذلك ما لا يدهي مثله البحر

ورفعت فيه في

رياض يد تجني وعين وخاطر تسابق فيها النور والزهر والشمر

وكومت منه في حياض

تسر مجانيها اذا ما جنى الظما وتروى مجاريها اذا بخل القطر (٢) . . الخ

ومثال لتضمينه اقسام أبيات من الشعر قوله :

اجاب المنادى للصلاة فأعنا	وعلى كتاب مولاي بعدما
تجلى الذي من جانب البدر أظلم	فلما استقر لسدى
بعمين اذا استنظرتها امطرت دما	فقراته
فما لت مصروفا على النطق أمجما	وسالته

(١) من ترسل القاضي الفاضل ، ٥١ - ٥٢

(٢) القلقشندى ، ١٠١ ، ٢٧٦ - ٢٧٧

ولم يرد جوابا  
ورددته قرأه  
وحفظته  
وماذا عليه لو أجاب المتسما  
فعمجلت دون الحلم ان اتحلما  
كما يحفظ الحر الحديث المكتما (١) . الخ

حاول في رسالته هذه ان يعارض رسالة ليديع الزمان المزداني .

ومثال لتربيته قرنية كاملة من النثر على بيت : او نصف بيت من الشعر قوله :

ورد كتاب الحضرة بعد ان عدت  
الليالي ليلة بعد ليلة لطلوع الصديق  
وقد عشت دهرها لا اعد الليالي

وبعد ان انتظرت الفيض والشتاء  
لفصل ربيعاه . . .  
فلما للنوى ترمي بليلي مراميا ؟

واستروحت الى نسيم سحره  
ومددت يدي لاقتطاف ثمره  
اذا الصيف القى في الديار المراسيا  
فله ما أحلى وأحسن المجانيا (٢)

وكتابة رسائل اخوانية بهذه الطريقة تدل على الكثير من التكلف والتصنع .

وأظهر ميلا الى الاطناب في معظم رسائله ، فهو يتحدث ويكرر ويدور

حول نفسه كثيرا ، فتأتي بعض رسائله فتنه بارده تحمل الفاظا عديدة وجملا كبيرة

لتدل على معنى بسيط ، فاسمه يقول في احدى رسائله الى العماد مخبرا باستلامه

(١) المصدر السابق ، ٢٢٢ - ٢٢٨

(٢) المصدر نفسه ، ٢٢٩

كتاباته : " قدم على الملوك من الديوان كتاب شريف اضاءت الخواطر لمقدمه ،  
وعارت سما بانجبه وكانت كنانة لما اشتملت عليه من اسمه ، وترقى اسطره و  
درجات فقال اسباب السماء بسلمه ، وتوضحت جادة التوفيق بمعلمه وخطرفي  
السعادة بمعلمه وعتت وجوه السيوف اجلالا لقلعه وتلاه فكانما تلا منزلا او  
مشافهة فكانه شانه مرصلا ، وورده فكانما ورد منهلا ، وتقلده فكانما تقلد منصلا . الخ (١)

وأما المظاهر البارزة في بنا جملة ففصله بين المبتدأ والخبر بجمل  
عديدة كقوله مثلا " سبب اصدار هذه الخدمة ادام الله نعمه المجلس وضاعف جلاله ،  
وقرن بالنجح آماله ، ووادف بالفتح اقباله ، وأسبع بدوام النصر ونفاز القدر ظلاله .  
ولا زالت قطوف النصر لعزوماته جانبية ، وصروف الدهر ببقا أيامه ثانية ، وأودأثوره  
بنعمته فانية ، تجد يد صباية صباية شوق متضاعف " . (٢) حيث فصل بين المبتدأ  
في الجملة (سبب) وخبرها ( تجديد ) بعد جملة استعمل فيها صيغتين فسي  
الحديث . ونصله في جملة عديدة بين الفعل والفاعل ، او الفاعل والمفعول به كقوله :  
" ورد ادام الله ورود المسار والعمار على المجلس السامي ، وأعزبه الاسلام ، وجمل  
به الايام ، وأقنى بعلاماته عن الاقلام عورفه سيوف الممالك التي يدبرها بما في يده من  
الاقلام ، ( وجمل ) رحله وآمن سبله ، وأعلى محله ، ووصل حبله وسربلقائه اوليا .  
وأهله ، كتاباه الكرمان " . (٣) فصل بين الفعل ( ورد ) وناعله كتاباه بجمل عديدة .

(١) كتاب فيه من كلام الفاضل ، ١٥٢ - ١٥٨

(٢) الدر النظيم ٢٢٤ ورقة ١٨ - ١٩

(٣) كتاب فيه من كلام الفاضل ، ورقة ٥٣



ومن مظاهر بناء جملة ايضا الالتفات وتنويع صيغة الحديث عند ما يتطلب منه الموقف ذلك ، وكان هذا اكثر ما يقع في رسائله التاريخية ، ففي رسالة لحصار الفرنج مدينة عكا عام ٥٨٥ هـ بدأ بشرح الوضع في البلاد وقوة الفرنج واسناعاتهم في الحرب في صيغة الماضي ثم راج يتضرع الى الله ان يخفف من شرهم بقوله : اللهم اخفر جوارره ، واعرف جورره ، واخلف وعدّه ، واكسر ضمانه ، وانكسر عنقه ، وهجل في الدنيا والآخرة منهم تباها ، وما بدأتنا من نعمتك فلا تقطعه ، وما وهبتنا من نصرك فلا تسلبه ، وما سترته من عجزنا فلا تهتكه ، ثم يعرض يقول للخليفة وفي دون ما الدين الاموال : ويوجب لامام هذه الامة ان يحفظ عليها قبلتها ، وينزع في قتل عدوها علتها ، ولولا ان في التصريح ما يعود على عدائه بالتجريح ، لقال ما يبكي العين وينكي القلوب وتنشق له المرائر ، وتنشق له الجيوب . . . ثم ينتقل ليقول " فيا عصبه محمد صلى الله عليه وسلم ، اخلفه في امته بما تطمئن اليه مضاجعة ، ووقه الحق نينا ، فانا وان المسلمين عندك ودائعه - وما مثل الخادم نفسه في هذا القول الا بحالة من وقف بالباب ضارعا ، وناجيا بالقول *محمد صادعا* . (١)

بدأ حديثه في هذه الرسالة بصيغة الماضي ثم أخذ يدعو ، ثم عاد

الى صيغة الماضي ، ورجع ليطلب من الخليفة ببغداد المساعدة بصيغة أخرى .

ورد العجز على الصدر كقوله في احدى المناسبات : " ولم أزل اتجلد  
الى ان دفعتني التجلد الى التبلد ، وادافع الأوقات الى ان دفعتني ، وأفساللب  
الضرورات الى ان فلبتني ، فلو نظرت الأمر من أوله فعلت ما فعلت في آخره " (١)  
وتكرير بعض الألفاظ مراراً متعديداً في الجملة ذاتها كقوله في احدى رسائله " فقد أنفق  
المولى مال مصر في فتح الشام ، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة ، وأنفق مال الجميع  
في فتح الساحل ، وينفق ان شاء الله مال القسطنطينية في فتح رومية ، والملوك كلهم  
وكلاءه وأمناءه على خزائنهم الى ان يسلموها اليه " (٢)

## ٢- المحسنات المعنوية

واعنى بمعانيه اعتناؤه بألفاظه حتى اعترف له بعض الأدباء بالقدرة  
على ابرازها بشكل جميل ، كالقلمشندى في قوله " ومعاني القاضي الفاضل هي التي ترقص  
لها القلوب ، وتطرب لها الألباب ، ويهجم قبولها على النفوس من غير حاجب ولا يواب " (٣)  
وحاول ان يجعلها ما استطاع بالمحسنات فلجأ في أحيان كثيرة الى الطباق والتلاصق  
والمقابلة والتورية . وكان يطابق احياناً بين كلمات ويقابل احياناً أخرى بين الجمل في فنن  
طباقاته قوله " فأعدهم واقامك ، وكسلمم وتشطك ، وقبضهم وسطك ، وحبب الدنيا  
اليهم وبغضها اليك ، وصعبها عليهم وهونها عليك ، وأمسك ايديهم وأطلق يدك ،

(١) اللغات الخبيثة كتاب فيه من كلام الفاضل ، ١٠٢

(٢) ابوشامة : ٢ ، ١٧٧

(٣) القلمشندى : ٢ ، ١٨٩

وأعد سيوفهم وجرّد سيفك ، واشفاهم وأنعم عليك ، وتبطنهم <sup>بهم</sup> وسرك \* . (١)  
ومنها أيضا قوله \* ولم يؤخر فتح البلاد الا ان فرح الكفار بالشام استصرخ بأهل  
الكفار من الغرب فأجابوهم رجالا وفرسانا وشيئا وشباناء ووزانات <sup>وإلاد</sup> ووحداناء  
وبرا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وركبوا اليهم سهلا ووعرا \* . (٢) ومثل من توريته  
العديدة قوله \* أصدر الخادم هذه الخدمة من ثغر عكا وقد <sup>علا</sup> تبسم لقدومنا  
فأمحى ليل الكفر عن جانبيه \* . (٣) حيث وارى في كلمة ثغر حين استعمالها بمعنى  
الثغرى المدينة المتطرفة الموقع ، والثغر بمعنى الفم .

### الصور البيانية

واحتشدت بعض رسائله \* التاريخية بشكل خاص \* بالصور والتشبيه  
والاستعارات والمعجازات والمعاني المشخصة التي كان يجيد فيها ويسواحيانا وينحدر  
حينما يحاول ان يعقدها بشكل يصل الى حد المبالغة ويصعب معه تحليلها الا  
بأعمال فكر شديد . وها هو في احدى رسائله ، يحاور ان يعرف الطبيعة فيخفق الى  
حد ما مع ان المجال للابداع امامه واسعا ، لماذا ؟ لأنه اهتم بالشكل قبل كل  
شيء ، وبايراد صور متلاحقة متتابعة ومعان معقدة فيقول من " بعين " (٤)

(١) ابوشامة ٢٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧

(٢) المصدر نفسه ، ٢٣٣

(٣) الفاضل من كلام الفاضل ، الصفحة غير مرقمة

(٤) حصن في سوريا سار اليها مع صلاح الدين عام ٥٧٠ لفتحها " ابوشامة ٢٥٠ ، ١ "

• حيث أخرجت السماء أنفالها ، وفتحت من عزاليها انفالها ، وركضت خيل  
الرعد لابسة من الغيم جلالها ،<sup>(١)</sup> وثوب الليل بالغمام غسيل ، وشبح الظلام  
بسيف البرق قتيل ، وغراب الأثق بارز ، إلا أنه في فوس فزح ناز ،<sup>(٢)</sup> وكان  
عقارب الظلمة بالثلج أناعي ، فليل قرنيها ليل السلم<sup>(٣)</sup> وكان مواقع الرعد  
فلا فعاقيع ،<sup>(٤)</sup> وحلى الغواني في يده ، فهو لا ينام ولا ينهم . وكان الصباح  
قد ذاب في الليل قطرا ، وقد ابتل جناح الليل الغدق<sup>(٥)</sup> فما يطير ، وأبطأ  
حمام الصباح خلاف ما فحاء نوح في رسالته نوح فما يسير . . . ويقول " فأما الخيام  
التي انضجت جلودها . . . الشمس ، واسودت ثم نضحت<sup>(٦)</sup> بدموع الغمام  
فتراخت اجفانها ، وبعد ما اشتدت ، فما هي إلا أعمى سال منها بالدموع كحلها ،  
وخيلول وهم ظل من الأظناب شكلها<sup>(٧)</sup> ولا يزال الخصام بينها وبين الأهوية إلى  
ان تشق من حزنها كما شقها السحاب طرسها .

- 
- |     |                  |
|-----|------------------|
| (١) | غطاء             |
| (٢) | قافر             |
| (٣) | اللدغ            |
| (٤) | صوت تضارب السلاح |
| (٥) | الغراب           |
| (٦) | رشحت             |
| (٧) | رباطها           |

نظرة الى هذه القطعة القصيرة تظهر لنا ولع القاصي الفاضل

• بالاستعارات والتشبيه وتعميده لها .

فمن استعاراته في هذه القطعة :

استعار للبرد خيلا ، بقوله " وركضت خيل البرد " ، ولعله اعتمد

هذه الاستعارة على ان صوت البرد يشبه سهيل الخيل .

كما استعار لليل ثوبا ، بقوله " وثوب الليل بالغمام فسيل "

واستعار للظلام شبعا ، وللبرق سيفا ، بقوله " وشبح الظلام بسيف

البرق قتيل " .

واستعار للأفق غرابا " وزاب الأفق باز " على انه كان في

• سواده كالغراب .

واستعار للظلمة عقارب ( وكان عقارب الظلمة ) على ان العقارب

سوداء في لونها كالظلام ، كما استعار لليل جناحا بقوله " وقد ابتل جناح

الليل الغدق " .

واستعار للغمام دموعا بقوله " ثم نضحت بدموع الغمام " يقصد المطر .

واستعار للخيام جفونا ، بقوله " فتراخت اجفانها " كما استعار لها

جلودا بقوله " فأما الخيام التي نضجت جلودها " ، فالخيام تصنع من الوبر ، استعار

• لها جلودا ليشخصها .

ومن تشبيهاته ، " شبه عتارب الظلام بالأناعي " استعارة

وتشبيهه .

وشبه صوت الرعد بصوت السلاح المتضاربة في قوله :

وكان مواقع الرعد نعايع

شبه اوتاد الخيمة ، بالشكال التي ترابط بها ارجل الجياد

( بيد ومن وصفه ان الوقت عند طلوع الفجر ، فالمطر شديد وصوت الرعد

قوى كصهيل الخيل اللابسة من الغمام جللا ، وثوب الليل الذي بدأ يختفي مفسول

بالأمطار قد الشديده ، والظلام ينجلي بين آن وآخر بسبب البرق ، الا ان الايق مسود

كالغراب ، بسبب الغيوم المتكاثفة فيه ، وهذه الغيوم التي شبهها بالغراب لسوادها

تشبه الباز في شكلها وتتب داخل قوس قزح الذي أخذ يظهر في الايق ، وكان الثلج

في لمعانه يظهر في الظلام كالأناعي بين آن وآخر ، فليكن ليل الشخص الموجود

في الظلام ليل اللديغ . اى ان الشخص الموجود في الظلمة يجد ليله طويلا كليل

المدروغ الذي يصاب بالآلم والارق فيجد الليل طويلا . وصوت الرعد يشبه صوت

تضارب السلاح فلا يسكت ولا يدع فوره ينام ، وكان الصباح قد ذاب في الليل

فكان مطرا ، وكان جناح الليل الذي يشبه الغراب قد ابتل فلا يستطيع الليل

ان يطير ، اى ان ينجلي ( وينزل ) ، يشبه هنا الظلام الناشئ من الغمام الشديده

بطائر ابتل جناحه بالمطر فلا يطير . والصبح متأخر في مجيئه بسبب الغيوم فكان

( حمامه ) اى بياض الصباح بطي في مجيئه ، فالظلام مسيطر بسبب الغمام الشديده في الجو .

ثم ينتقل ليصف الخيام التي انضجتها حرارة الشمس ، ثم ابتدت بالمطر فضحت اجفاتها ، وربما يقصد بأجفان الخيمة الفتحات المنزوعة فيها التي تكون للخيمة كالعيون ، واذا كان لهذا الفتحات ستائر فانها تكون للعيون كالأجفان . فعندما ينزل المطر على قبة الخيمة ينحدر ويصير يقطر عن جوانبها ، فهذه النقاط المتساقطة من جوانب غلا الخيمة كالدموع ، والخيار الذي تحمله معها عن سطح الخيمة يشبه كحل العيون الذي يضيع مع البكاء ، والهوا العاصف يكاد يقلع الخيام المثبتة بالأوتاد والتي يشبهها بالخيل التي تربط سيقانها في شكل .

هذا المعنى الحرفي للقطعة ، ولكننا لو ألقينا نظرة اجمالية على

الصورة لنمكن ان نتصور الظلام الشديد المخيم بسبب الغمام المتكاثف في السماء ونسمع الرعد الشديد ونرى البرق الذي يخطف الأبصار بقوته بين آن وآخر . كما نستطيع ان نتصور الخيام والمطر يتساقط عليها والهوا الشديد يعصف بها ويكاد يقتلعها . الا ان كاتبنا أبي الا ان يعقد الصورة فأكثر من زخرفتها واضاع رونق الصورة التي أراد نقلها ، وكان من الممكن ان يضعها في قالب ألس وأسهل فتكون اجمل وأقرب الى الذوق .

ولا داعي لايراد صور اكثر من هذه لكثرتها ، ولكنها تعطي ولا شك

فكرة عن مذهب في البيان .

## تقييم نشر القاضي الفاضل

بالغ القاضي الفاضل في استعمال الزينة اللفظية والمعنوية في أسلوبه ، ولم يترك رسالة واحدة تفلت من بين يديه دون ان يزخرفها بلون من ألوان البديع او البيان ، فجاءت اكثر رسائله فئة مكلفة لكثرة ما ورد فيها من زخارف حجبت ما بداخل الرسالة من معنى وأظهرتها وكأن هدفا للرئيسي الأسلوب والشكل لا للاجتهاد الجوهري ، الا انه لم يقف مقفورا في هذا الميدان في الكتابة ، بل تأثر بروح العصر وبالطريقة الانشائية السائدة فيه والتي سادت في العصور السابقة له في مصر والمشرق الاسلامي ومصر حتى وصلت درجة من الاكتمال والنضوج على يديه ربما كان لطبيعته وثقافته أثر فيهما . فهو طموح منذ صغره يريد اعتلاء منصة المجد منذ بدء عهد في الكتابة ، فراح يزخرف رسائله وينفقها بشي من المقدرة والبراعة مظهرا تفوقا على غيره من الكتاب العاملين مع ذلك معه ليلفت الأنظار اليه . وقد كان له ما أراد وتوصل بكتابته الفنية الى القمة في العصر الصلاحي . وساعده ذلك وذاكرته القوية على الاستفادة من ثقافته في نشره فاستغلها في تلميحاته وإشارات وأكثرت منها في رسائله حتى برز استعمالها في رسائله وهدت من خصائصه الجوهرية . وقد تميز القاضي الفاضل بأسلوبه على غيره من الكتاب بتسخيره الاستعارة الشعرية لخدمة الأسلوب النثري مع تطويل في الجملة وتداخل في السجع . لذلك نسب اليه بعض الكتاب والمؤرخين طريقة خاصة بالكتابة سوحا بالطريقة الفاضلية حازت إعجاب بعض الأدباء



والبلاغيين المعاصرين والتالين له وجعلتهم يشيدون بتقويتها وبمهاره الفاضل فيها ،  
فقال العماد الاصفهاني " صاحب القران ، العديم الاقران ، وواحد الزمان ، العظيم  
الشان ، رب القلم والبيان ، واللسن واللسان ، والفرحة الوفادة ، والبصيرة  
النقادة ، والبدية المعجزة ، والبدية العطرزة ، والفضل الذي ما سمع في الأرائل  
بمن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره ، او جرى في ضماره ، فهو كالشريعة المحمدية  
التي نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع ، يخترع الأفكار ، ويفسر الابتكار ، ويطلع  
الانوار ، ويبدع الازهار . وهو ضابط الملك بأرائه ، وروابط السلك بالآله ، ان شاء  
انشأ في يوم واحد بل في ساعة واحدة ما لو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة .  
أين <sup>أين</sup> قس عند نصاحته <sup>أين</sup> نيس في مقام حصانته ، ومن حاتم وهو في سماحة  
وحماسته . (١) وقال <sup>الضياء</sup> ليرسله في كتابه (٢) وكانت كتابته كتاب النصر وبراعته  
رائعه الدهر وبراعته بارية للبريه وعبارة نافية في عند السحره ، وكانت بلافته للدولة  
مجلة وللمملكة مكملة وللعصر الصلاحي على سائر الأعصار مفضلة ، وللمتجدد وفتتاحاته  
في الفتوحات البديعة بدية ، ومخترعاته في الصنائع المخترعة صنيعاً . . . وهو الذي  
نسخ اساليب القدماء بما أقدمه من الاساليب وأقر به من الابداع ، وأبدعه من الغريب  
وما الفيته كره دعا ذكره في مكاتبه ، ولا رد لفظاً في مخاطبته ، بل تأتي نصوله  
مبتكرة مبتدعة مبتدعة لا مفكره بالعرف والعرفان معرفة ولا نكرة . (٢) وقال عنه  
السبكي " امام لواء الأدب " وقائد لواء اهل الترمذ بل وصاحب صناعة الانشاء ،

(١) الاصفهاني : ٢٥٤ ، ٢٦

(٢) ابوشامه : ٢٤١ ، ٢٤٢

أجمع أهل الأدب على أن الله تعالى لم يخلق في صناعة الترسد من بعده مثله ،  
ولا من قبله بأكثر من مائتي عام وربما زادوا ، وهو من بينهم كالشافعي وأبي حنيفة  
بين الفقهاء ، بل هو له أخضع لأن أصحاب الامامين قد يتنازحون في الأرجحية  
نكدر يدعي أرجحية امامه ، وأما هذا فلا نزاع من أهل صناعته فيه . (١)

وانتبه بعض الكتاب الى انه لم يكن مجددا في طريقته طريقة الانشا  
كابن خلكان الذي قال في حديثه عن ابن ابي الشخبا " ويقال ان القاضي الفاضل ،  
رحمه الله ! كان جل لهجر اعتماده على حفظ كلامه وأنه كان يستحضر اكثره " (٢)  
ولا شك ان لاشارة ابن خلكان هذه نيتها في دراستنا لاسلوب القاضي الفاضل واصدار  
حكمتنا عليه . ولكننا لا نستطيع ان نؤيدها او ننفىها وما بين ايدينا من رسائل ابن  
الشخبا لا يكفي لذلك . فقد وردت له بعض الرسائل في معجم الأدبا وفي  
جمهرة الاسلام (٣) تدل على شي من التشابه في اسلوب الكاتبين ، فابن الشخبا  
لا يجيد بعيد عن السجع ، ويكثر من استعمال الجناس ومن التضمين والاشارات  
وتشخيص المعاني والاستعارات والتشبيه ، وهذه كلها من خصائص اسلوب الفاضل ،  
غير أننا رأينا ان هذه من الخصائص التي وردت في النثر المصري قبل ابن ابي الشخبا ،

---

(١) السبكي : ٢٥٢ ، ٤

(٢) ابن خلكان ، ١ ، ٣٦٨

(٣) مخطوط

ولربما لو تمكنا من العثور على عدد أكبر من رسائل سابقى ابن أبي الشخبا لتمكنا من مقارنة رسائل الفاضل <sup>بهم</sup> برسائلهم بالإضافة الى رسائل ابن أبي الشخبا ، ولكن الظاهر ان ابن الشخبا بز فبره من الكتاب في هذا الفن وبع في استخدام المحسنات اللغويه والمعنويه حتى " بهر معاصره بفنه وجعل المؤرخين يشيدون بفضله " . (١) وقد سبق الفاضل الى التأثر بأبن أبي الشخبا ابن قادوس ، استاذ الفاضل ، كما يظهر من بعض سجلاته التي وصلتنا ولكن هذا التأثر يدل ايضا على روح العصر والتأثر بالبيئة وبأسلوب الكتابة الشائع الذى امتد الى ما بعد القاضي الفاضل . لذلك لا نستطيع ان نقول انه تأثر بأبن الشخبا وحده بل بالنشر الشائع بوجه عام . وقد كان لمركزه كوزير دولة صلاح الدين وكتائب رسمي في الدولة العجم دعاية في ازدياد شهرته وثنا الحكام والأدبا<sup>عليه</sup> له والأهتمام بتقليد نشره والمسير على نهجه .

#### مقارنة اسلوب الفاضل بأساليب بعض معاصره

عاصر القاضي الفاضل جماعه من الأدبا وكتاب الدواوين كانت لهم صلات ومراسلات سار معظمهم فيها على الخط الذى سار فيه القاضي الفاضل من استخدام البدیع في الكتابة ، كان اكثرهم أسرا بها عماد الدين الأصفهاني الذى أسرى في الجناح و زاد بتعقيد له على القاضي الفاضل حتى توصل فيه الى درجة

من الغموض والابهام . وقد شرح أسلوبه في الكتابه خلال رساله ارسل بها الى القاضي  
الفاضل قال فيها " وهذه الرسالة قد وفيتها حقها من التجنيس والتطبيق والتوصيف ،  
والمقابلة ، والموازنة والتوشيح " . أورد بعضها رساله ملاي بالتنسيق والزخرف  
والاشارات والتلميحات بشكل يدعو الى الملل كأن يقول مثلا " ما ظفر مدجج (١)  
الأظلام بالسنا ومحوج الاعدام بالغمي ، ومزج الغرام من وصل حبيبه المفارق  
ينجح المنى ، ومخرج السقام من وصف طبيبه الحاذق ببرم الضنا ، والمعوز المعور (٢)  
بتمر الجدة بعد الاملاق ، والمنهج (٣) بلا المبهج بعز الجدة فبالاخلاق " (٤)

ويلتقي العماد الاصفهاني مع القاضي الفاضل في عدم التفرقة بين الكتابة  
الديوانية والفنية التي فطن اليها الكتاب الاقدمون وفرقوا بينها كبدع الزمان الهمداني .  
وقد أضاعت للفاضل جزءا من قيمة رسائله التاريخية ، وكذلك للعماد ، خاصة في كتابه  
الفتح القسي في الفتح القدسي الذي بناء على البديع وطني بأسلوبه فيه على التاريخ  
نجا مصطنعا بعيدا عن الطبع والذوق بالرغم مما يحويه من قيمة تاريخية ، كقوله في  
في احدى صفحاته للشميل ، " وقد سد طريق الفلق فيلقه الطارق ، وزحف  
الى الحق الثابت باطله الزاهق ، وجال بالوجل وجا بالوجيب ، وثار لثار الصليب  
السليب ، وقد جمر جمعه ، ورتق فتق الصبح رفع نفعه ، وما نثر الفضا ختام قتاه ،

(١) شديد الاظلام

(٢) الذي يحتاج ولا تنضى حاجته

(٣) الثوب الخلق

(٤) الاصفهاني : ١ ، ٤٤٦ - ٥٠

حتى ضم على ضوء نهار الهدى ليل الضلال بعلامه ، والرجاء محقق الا ان الألماني  
مخفق بالعامه ، والاسلام مشفق من اسلامه ، والدين موفق بنصرة امامه ، وهصمة  
الله الواثية الواثية من ورائه وامامه ، والله الكافل باعلاء اعلامه واحكام احكامه \* (١)

وقد فطن زميل ثالث للقاضي الفاضل والعماد ، وهروبها الدين  
ابن شداد ، الى ضرورة الفصل بين هذين الفنين من الكتابة وألف كتابا بالتاريخ  
في سيرة صلاح الدين (٢) بمنتهى البساطة والسلاسة دون ان يخلو من الدقة  
فجاءت كتابته أفضل من كتابة زميليه وأقرب الى الواقع وطبيعة التاريخ ، وتخلت وتنادت  
بأبي كتاب العصر بين مستعبد للكتابة الديوانية ومائل الى الكتابة النثرية البسيطة ،  
الا ان الكتابة الديوانية الاسلوبية كانت اكثر شيوعا على العموم .

#### آثره فومن جاء وا بعده من الكتاب

ظل الاسلوب الفاضلي مسيطرا على الكتابة الديوانية والفنية حتى عهد  
غير بعيد عنا ، ولعل دوران رسائله بين فئه معينه من الأديبا يفسر لنا أثرها في الكتابة  
فقد كانت تصدر عن ديوان الانشاء المصري اليفيره من الداوين في البلدان الاسلاميه  
لتقرأها جماعة مختصة بهذا العمل وتحفظ نسخا عنها في الديوان المصري وفيره من  
التوايح الداوين ما قسح المجال لمن جاء وا بعده الفاضل من الكتاب الديوانيين

---

(١) الاصفهاني ، "الديوانية" ، (١٧٤٠)

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

بشك خاص ليطلعوا عليها ويتأثروا بها وبغيرها من الكتابات الشبيهة لها ويحاكونها ،  
امثال فخر الدين ابن لقمان <sup>(١)</sup> ، ومحبي الدين ابن عبد الظاهر <sup>(٢)</sup> وفتح الدين ابن  
عبد الظاهر <sup>(٣)</sup> وشهاب الدين محمود الحلبي <sup>(٤)</sup> وغيرهم ممن اشتهروا في الدواوين  
المصرية .

وهكذا نردان أثر الفاضل كان بعيدا الا انه لم يفد الكتابة العربية بقدر  
ما أضر بها ، لأن ناحية الشكل تغلبت على كد ما عداها حتى جاءت عصر الانحطاط  
فأصبح الكتاب يهيمون بالزخرفة فقط لاثبات قدمهم بالناحية الاسلوبية . ومن هنا  
كما اصبحت الثورة لازمة على هذه الأساليب في عصرنا ، فاشتركت الصحافة والأدباء في  
تغيير الاسلوب ليكون مرسلا مرة أخرى كما كان لدى الجاحظ .

اما أول من فطن من القدماء الى ضرورة تغيير هذا الاسلوب ونقدوا بصراحة  
فابن خلدون في مقدمته حين قال " والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو  
اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيح الا في الأقل الغادر وحيث ترسله الملكة ارسالا  
من غير تكلف له ، ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته بمقتضى الحال ، فان المقامات مختلفة ،  
ولكل مقام اسلوب يخصه من اطناب وايجاز او حذف او اثبات او تصريح او اشارة او  
كناية واستعارة ، واما اجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على اساليب الشعر  
فمذموم وما حمل عليه أهل العصر الا استيلاء المعجمة على السننهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام

- (١) ولي ديوان الانشاء في عهد الملك الصالح نجم الدين ايوب وكتب لبعض تقليد السلطان  
بيبرس والمنصور قلاوون . توفي عام ٦٩٣ هـ الفلغشندي ٦٧٠ ٦٧٠ هـ .
- (٢) من الكتاب المتأخرين ، توفي عام ٦٩٢ هـ " الكتبي ١ ، ٤٥١ " .
- (٣) ابن محبي الدين يكتب في الانشاء وساد في دولة المنصور قلاوون ، توفي بدمشق عام ٧٩١  
" المقرئ ٣ ، ٤٤ ، ١٣٠ " .
- (٤) من الكتاب المتأخرين ، أورد له الفلغشندي عددا من السجلات في صبح الاعشى .

حفه في مطابقته لمقتضى الحال ، فنعجزوا عن الكلام المرسل لبعده أمداء في  
البلاغة وانفساخ خطوبه ، ولعمرا بهذا المسجع يلفقون به نقصهم من تطبيق  
الكلام على المفصود ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والالغاب  
البديعية " . (١)

---

(١) ابن خلدون ، ٥٥٠ ، ٥٥١

للقاضي الفاضل مجموعة كبيرة من الأشعار ، حدثنا عنها بقوله : " اني

من مدة سنتين وما قاربها وهي المدة من تاريخها نرح بهجرة وكدي وعلو  
سعر شعري ، وقد نظمت مائتين وخمسين الف بيت من الشعر بشهادة عيانها  
وحضور ديوانها مثل قولني في باذهنج شديد الحرور كأنما يتففس نفس مصدر .  
وما يناهز الف بيت كل بيت مقصوع منها يخزع العقول اختراعه ويعني المحاسن  
بديع ابتداعه ، ومثل قولني في رجل طويل الآذان كأنهما في رأسه خفان ار قد  
عجل له منهما نعلان ما يقارب الف بيت تجاوزت بهما وأرريت وما أدخلت  
منها الشاعر الى بيت ومثل قولني في رثاء الوطن الذي درجت من وكره ، وخرجت  
فلم أخرج عن ذكره ما يناهز عشرة آلاف بيت ، ومثل قولني :

في مدائح منصوعة وأهاجي مخصصة (١) .

وقدر سبط ابن الجوزي ما قاله القاضي الفاضل في المدح بمائة

الف بيت . (٢)

وقد احتفظت بعض المراجع الأدبية والتاريخية بقسم من شعره ضئيل  
بالنسبة لما ذكر عنه . كما جرت مؤخرا محاولة لطبع الجزء الأول من ديوان شعره ،  
قام بها الدكتور احمد بدوي معتمدا على مصادر معينة ومغفلا مصادر أخرى  
امثال طالع البدر للغزولي ، والغيث للصفدي ، والأغلاق الخطيرة لابن شداد ،  
تحتوي شعرا له كان حريا به ان يضيفه الى ديوان .

(١) الغزولي ١ - ٤٧

(٢) سبط ابن الجوزي ٢٠٤٦٨



الفاضل الفاضل

الشاعر

من مراجعة الجزم المتيسر من اشعار القاضي الفاضل ، نجد ان  
الاشعار التي قالها في العهد الفاطمي متوفرة ، وكذلك الاشعار التي قالها في  
عهد العزيز \* ونما بين ذلك نغمة او ما يشبه النغمة لان الفترة الكبرى التي  
كان يجب ان ينظم فيها نغمة صلاح الدين وموقفه من الفرنج ، وربما يكون قال في  
تلك الفترة شعرا كثيرا الا ان ما تبقى من شعره لا يصور مجهوده في هذه الناحية  
تماما ، ولا نستطيع ان نقول انه اكتفى في هذه الفترة بالنثر .

اذا عددنا القاضي الفاضل كاتبا سياسيا ومؤرخا وشاعرا ، فان الشعر  
أضعف مظهره ، لماذا ؟ لانه لم يستطع ان يخرج من دائرة النثر ، أم لأنه كان  
محصورا في موضوعاته الشعرية ؟ ام ان البواعث العاطفية كانت فيها ضعيفة ؟  
ولذلك يتمثل في شعر القاضي الفاضل سيئات عصره لا حسناته .

اما الصورة التي يؤديها الديوان فالاختلاف فانقسام شعره في موضوعين

كبيرين :

أ - الغزل

ب - المدح

ولكن هذه الصورة لا تزال غير كاملة لان الجزء الثاني من ديوانه لم ينشر ، ثم ان  
ما راجعته من شعره في المصادر المتيسرة يدل على انه كان ينظم في فنون أخرى  
كالوصف والخمر .

فكأن شمعها في الوصف مثلا ، قوله في شمعة

ولما أراد الليل ينظر وجهه      تقدم ان يذكي له الشمع أعينا  
وما هي الا أعين وجفونها      دجاها وانسان السمود نهارنا  
رياض دجن فتحن عند وقودها      ازار نار تركب الشمع أفصنا  
عجبت لروض منه بالنار يزد هي      والا لزهر منه بالعين يجتني  
فتكن الدجن والخور فيض دماها      اذا النار نصد والشموع لها قنا (١)

وقوله بالفرش والارائك والساند

بساط يرى التيجان تهوى للشمع      فما هو الا قبلة من مقبل  
اذا نشرت من نقشه لك روضة      بدا فوقها من كفا لك جدول  
وأفضل اجزاء الجسم رؤوسها      وأرجلها في وطنه هسطك أفضل (٢)

ومن قوله في الخمر

لها من تصفوعلى الشرب أربع      وواحدة لولا سماحتها تكفي  
سرور الى قلب وتبر الى يد      ونور الى عين وعطر الى أنف  
ولما رأينا الياسمين حباها      مددنا يمين القطف قبل فم الرشف (٣)

(١) الغزولي ٨٤٤١

(٢) المصدر نفسه ٦٠٤١

(٣) المصدر نفسه ١٥٧

شمل

على انا نوثران هذا كان تجرية كلامية لان <sup>٤</sup> ما وصف به من  
تدين كان يحول بينه وبين ان يكون شاعرا مجريا في هذه الناحية . ولكن حيث  
كان يجب ان يكون الغزل وهو المبني على البواعث الذاتية أبرز الصورتين او  
جانبي الصورة نجد ان الغزل هو النوع المتهاون بينما المدح هو الموضوع  
الحيوي المبني على تشفيق المعاني والاندفاع الموسيقي ، لماذا كان الوضع كذلك ؟

في اعتقادي ان فلبه الصورة الشعرية على غزل القاضي القاضل هي التي  
جعلته نائرا في هذا الغزل ، كما ان تكرار الصور وتكرار <sup>الوضع</sup> الموضوع العبودي الذي يصور  
نفسه فيه ذليلا محروما هو الذي يعطي هذا الغزل صورة مبتذلة . ومن أمثلة الصور  
التي ابتكرها صورة الحية والعقرب التي لا يسأم من تردادها . وهذا لا يدل على وضع  
نفسه بقدر ما يدل على وضع حضاري . فالجارية والغلام كانا يصفغان شعرهما  
بالطريقة ذاتها . وهذه الأوصاف وردت في ديوانه بما لا يقل عن عشرين موضعا ،  
أورد منها للاستشهاد ، قوله :

وبمهجتي خد حميت نعيمه  
الله جار قلوب أهل العشق من  
بقرينتين من العذاب الأعذب  
وثبات حية <sup>حيته</sup> ، ومشي العقرب (١)

وقوله

لم أخف حية على الخد تسمى  
ميت ضيقا في الرق رقّ فليلي  
لا ولا عقربا عليه يدب  
مطلته بالورد والورد <sup>نعل</sup> (٢)

(١) البيساني ١٣٤١

(٢) المصدر نفسه : ١٥

وقوله

أما ترى في خدها حية  
فحيةً بالونب قد بشرت

وعقربا بشرتنا بالعجيب  
وعقرب قد بشرت بالدبيب (١)

وقوله

أما ترى في خده عقربا  
وعقرب قلم ، فلا لا مس  
سوداً في حمراً تحكي لنا

ليس لها في ناره من فرق  
وقلم نند ، فلم لا احسق احرق  
بقية من ليلة في شفق (٢)

وقوله في الحية

ما حية في الخد يا سكني  
لم ترق خدك وهي ما لدغت  
وجزاً لها من رقية نسق

سكنت ، وأمرت خلفها نرفا  
الا وقد الجمتها برقي  
قبيل يولفها الهوى نسقا (٣)

ومن الصور التي أولع فيها القاضي الفاضل في غزله ايضاً ، قصة آدم

وهبوطه من الجنة . كقوله :

يا من سفكت دمائي في الدموع  
عاهدتم وتناسيتم عهدكم  
والنفس في زفرات قيدت نفسي  
فالله عاهد قداماً آدمًا فنسي (٤)

(١) المصدر السابق ، ١٦

(٢) المصدر نفسه : ٧٢

(٣) المصدر نفسه : ٧٢

للم (٤) المصدر نفسه ٥٣

وقوله

ما بالك يا ابليس من خلفنا  
امس من الجنة اخرجتنا  
واليوم قد عادت الى جنة  
بالامس في اخراجه والدا  
تريد ان تهبطنا ثانيا  
يا شيخ بسرعنا ففي دهرنا  
تطلبنا بالماء والزاد  
بحية من ذلك الوادي  
من رجنت ذات ايقاد  
واليوم في اخراج اولاد  
الى منى انت بمرصاد  
ما جاء معشوق بقواد (١)

كجلا

ليست هذه الامثلة للحصر ، ولكنها لتبيان غرامه بهذه الصور .

اما مدحه فكان بالصفات العامة الشائعة من كرم وكرم وحلم وشجاعة

وتفوى وحسن تدبير وعقل ، الصفات التي تعود غيره من الشعراء ان ينسبها الى  
مدح وحيهم ، كان يستعملها في أغلب الأحيان ، بعد مقدمة غزلية دون ان يخص واحدا  
من مدوحيه بصفات خاصة تدل على حقيقته .

لذلك جاء شعر القاضي الفاضل في الغزل والمدح قائما على

خصائص شكلية ، منها :

١ - الطبيعة النثرية ، كقوله :

---

(١) المصدر السابق : ٣٢

اذا كان دهرى لا يزال محاربي  
وان كان لا يكفيه شيء سوى دمي  
فيكفيه من عينيه سيف الى قلبي  
وان كان لا بد من الحشد للعدا  
نحسبي للعدال والرقيا حسبي (١)

سار في هذه الابيات بالتقسيم والترتيب النثرى ، وهذا لا يعنده

الشعر لانه مبني على الملح .

وكذلك قوله :

ينغادي به لجاج النفور  
لا تغل<sup>تغل</sup> : اقواله طيبات  
وينافي لهوى لجاج الغرور  
وعلى القول مسحة من نور (٢)  
فعلى <sup>الفعل</sup> ~~التعقل~~ مسحة من ظلام

ب - التحل في طلب المعنى ، وهذا يخرج احيانا الى الاحالة :

نظرت اليه نظرة ، فتحيرت  
فأرحى اليه القلب اني احبه  
دقائق فكري في يد يد صفاته  
فأثر ذاك الوهم في وجناته (٣)

راعى في هذه الابيات المعنى ، دون ان يوجد رابطا يربطها .

وقوله :

ولقد مررت بدار من احبته  
فذكرت سبحي في بحار ندامهم  
ليس التي للحب بين ضلومي  
فوقفت اسبح في بحار دموعي (٤)

(١) المصدر السابق : ١٨

(٢) المصدر نفسه : ٥٥

(٣) المصدر نفسه : ٢٥

(٤) المصدر نفسه : ٦١

اهتم هنا بالمعنى وبالتلاعب بالألفاظ وتكريرها .

واستمع الى شاعر بلغه نبأ موت صلاح الدين ، أحب الناس اليها  
وأفضلهم ، ثم كذب النبأ ، <sup>كيف تلتذوا</sup> كيف تلتذوا ويصف شعوره عند سماعه بتكذيبه

نعمي زاد فيه الدهر مؤماً      فأصبح بعد بوّساء نعماً  
وما صدق التذيرُ به ، لا هي      رأيت الشمس تطلع والنجوم (١)

فانه يعنيه التلاعب بالكلمات وحذف حرف او زيادة حرف آخره ، وما هذا تعبير

عن شعور عميق .

ج - حل معان مستمدة من ثقافته الاصلية ، واكثر ما اثر فيه بشكل متميز القرآن ،  
ثم الحماسة بالدرجة الثانية ، ومع انه اضاف الى ثقافته بمرور الزمن ثقافة اخرى ،  
الا انها لم تتضح كثيراً ، واكثر ما انطبع عنده اثر المتنبي أحياناً ، واثر الدراسة  
الفقهية ، ومن بعض تأثراته بالقرآن قوله :

إذا زلزلت بالعاديات منازل      فلا هجنكم صبحاً ، ولا رعنكم صبحاً (٢)

استندها من قوله تعالى في سورة العاديات " والعاديات صبحاً ، فالموريات قدحا ،  
فالمغيرات صبحاً " . (٣)

(١) المصدر السابق : ٣٠٦

(٢) المصدر نفسه : ١٧٦

(٣) القرآن الكريم : ٨٠٨



وقوله

وأقسم لولا أنه طوي عزة  
ومن موعد الأظواد في الحشر أن تسرى  
تدهلت لأشرار القيامة إذ بدت  
لأنني رأيت الجود منفجر البحر (١)

استدها من قوله تعالى في سورة الانقطار " إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب  
انفثرت ، وإذا البحار فجرت " . (٢)

وقوله

أما رأيت فيمهي الصبح يا شقيا  
ألا أتيت عليه بالدم الكذب (٣)

استدها من قوله تعالى في سورة يوسف " وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل  
سولت لكم أنفسكم أمرا " . (٤)

ويظهر تأثره بالفقه في قوله :

عذول الهوى يبني بغير أساس  
ويبني بلا نصٍّ وبغير قياس (٥)

فهو هنا يستعمل اصطلاحات الفقهيا من نص وقياس وانثاء ، ويظهر أثر

اللمتني<sup>فيه</sup> في قوله :

كما يتزيا بالهوى غير أهله  
كذا ما تزيا بالهوى غير أهله (٦)

(١) البيهقي ٢-٣

(٢) القرآن الكريم ٧٨٧

(٣) المصدر السابق : ١٣٦

(٤) القرآن الكريم ١٠٩

(٥) البيهقي : ١١٠

(٦) المصدر نفسه : ٨٠

أما أبيات المتنبي فهي :

وقد يتزيا بالهوى غير أهله      ويستصحب الانسان من لا يلائمه (١)

كما حل قصيدتين متتاليتين من الحماسة في قصيدة واحدة مما يدل على انشغال ذهنه بما درسه في حياته ، والقصيدتان اللتان حلها مقارنتان في موضعهما في كتاب الحماسة ، أما القصيدة الأولى فهي قصيدة تريط بن أنيف التي مطلعها :

لو كنت من مازن لم تستبح أبلبي      بنو اللقيطة من زهلي <sup>بن</sup> شيبانا  
ومنها      لكن قومي وان كانوا ذوي عدد      ليسوا من الشرفني شي\* وان هانا <sup>١٨٧</sup> (٢)

وأما الثانية فهي قصيدة الفند الزماني :

صفحنا عن بني زهل      وقتلنا القوم اخوان  
وفيها يقول ، وهو من المواضيع التي استعارها الفاضل :

فلما صرح الشر      وأسى وهو عريان  
مشينا مشية الليث      فدا والليث فضبان  
ومنها      وطعن كرم الزرق      فدا والزرق ملاّن <sup>(٣) (٤)</sup>

(١) المتنبي - ٢٥٦

(٢) ابوتام ١٤٥١

(٣) المصدر نفسه ، ١٥٤

وقد مزج القاضي الفاضل بين القصيدتين في قوله :

لا كنت يا زهل همومي ، ولا ابوك دهرى ، فهو شيبان  
تدروا الحفيظات لهم لومة لانوا فلا قروا اذا هانوا (١)  
\* اخذها من قصيدة فريط \* .

وأخذ عن قصيدة الفند ، في قوله :

غمودهم كسوة اسياهم لا حطت ، والشر عريان  
كم وق خمر نهم ناطق سكران ، بل راجية سكران  
فلا تراجعهم ، ولا لفظه ولا تزدد ، فالزق ملآن (٢)

ويلحق بهذا النوع الاقتباس والاشارات التاريخية .

فمن اقتباساته قوله :

ويا من سقى بالخمر من طيب ذكره \* الا فاسقني خمرا ، وقل لي : هي الخمر \* (٣)

اقتبس الشطر الثاني من هذا البيت ، شطر بيت لابي نواس ، شطره الثاني :

\* ولا تسقني سرا اذا امكن الجهد \* (٤)

(١) البيساني ١١٤٦

(٢) المصدر نفسه ١١٤٦

(٣) المنظر نفسه ٢١٨

(٤) المصدر نفسه ٢١٨ ، هامش ١

وقوله :

أيا صالح الآمال ، كم قلت متنياً ، إذا نحن أنينا عليك بصالح (١)

نصف البيت لأبي نواس ، والشطر الثاني هو " فانت كما نثني وفوق الذي نثني " . (٢)

ومن اشاراته التاريخية تلميحاً الى قصة عثمان بن عفان عندما حاصر

في بيته وقتل ، في قوله :

أصبح في دار ضلوبي الأسي	قلبي كما أصبح عثمان
محصورة أمواله ماله	مع اشتداد الحصر إمكان
قد أحرق الهتم بأرجائه	جيشاً فضرباً ، وطعمان
فيا زمني مان جرت نظرة	من دم قلبي ، فلها شان
في دم عثمان الذي قد جرى	جرت من الأحداث ألوان (٣)

ومن اشاراته الى أسماء اشخاص قوله :

ما اكثر الاطراب بالبعد الذي	يرزى بهم كثير من قوة عزة
طرب الكرم الى العلا غير الذي	يلتذ من طرب الوليد بعلوة (٤)

(١) المصدر السابق : ١٨١

(٢)

(٣) البيهقي - ١١٣ - ١١٤

(٤) المصدر نفسه ، ١٦٧

أشار في أبياته هذه إلى شاعرين ، كثير ، أحد شعراء الأمويين ،  
اشتهر بحبه لعزة ، والبحثري ، أحد الشعراء العباسيين ، أحب فتاة حلبيية  
تدعى علوة .

د - التلاعب اللفظي والتورية :

فمن توريته قوله :

يا قلب كم خلفت ثم بشينة وأعيذ صبرك ان يكون جميلا (١)

ورى بين الجمال وجميل ، أحد الشعراء ، اشتهر بحبه لبشينة .

وقوله :

فيا ليل ان تولنيها يدا تجدني لها ذاكرا شاكرا

وان قلت : انعرفه كافرنا أقل الا ، ولكن نعم ، فاجرا (٢)

استخدم كلمة كافر على سبيل التورية من الكفر ضد الايمان . والكفر بمعنى السر ،  
وفي كلمة كافر تورية ، فالمعنى القريب انها مأخوذة من الفجور وهو الانبعاث في  
المعاصي ، والثاني انها مأخوذة من فجر الفجر بمعنى اعمره . (٣)

ه - استعماله الدارج من اللفظ لدرجة العمامة . كقوله :

(١) المصدر نفسه ، ٩١

(٢) المصدر نفسه ، ٢١٣

(٣) المصدر نفسه ، ٢١٣ هامش (٢)

نحياتي لا أوحش الله منها      وعلى الدهر بعد موتي السلام

كان أقرب الى العامة في قوله " لا أوحش الله منها " .

وقوله :

ومك الى نفسي ، فلمها وأغضب      فما لي ما بين الصديقين مدخل (١)

استعمل التعبير الداج " ومك الى نفسي " .

وقوله وهو أقرب الى العامة :

كأنه الحائظ ، لم يستمع      شكوى ، وللحائظ آذان (٢)

و - اعتماد الصنعة القائمة على العد كصيدية مدح بها العزيز عثمان عد

فيها صفات مختلفة بأربع ، ثلاثا وأربعين مرة ، بدأ القسم العددي منها

بقوله :

نفره وطيب وأحداق ، وأجباد	فيهن من شبه الخزلان أربعة
طب ، وفرش ، وسمار ، وهواد	وقد بكت لضى العشاق أربعة
ينمي ، ويهي ، ويستشري ، ويزداد	همي بهم زائد زاده أربعة
عدا ، يود مع ، واطراق ، واسهاد	وكيف يبغي على العينين أربعة
عهد ، وود ، واقوال ، وميعاد	هيها يصدق منك الظن أربعة

(١) المصدر نفسه ، ٨٦

(٢) المصدر نفسه ، ١١٤

ويقول فيها: وللعزيز من الملوك أربعة  
تجمعت في مد يحي فيه أربعة  
قلبه ونطق ، وأخلاق ، واحكام  
سبك ، ونظم ، وإنشائي ، وإنشاد (١)

وهكذا ، الى آخر القصيدة .

ز - اعتناؤه بالجناس والطباق ومراعاة النظر .  
نمن جناساته قوله :

من أين أنت ، ومن يدريك أين انا  
ما جئت مبعوثاً ، بل جئت باعثة  
الجد خلقي ، ومن اخلاقك العيب  
هي ، ولا خاطر في الهم منيعت (٢)

حيث حاول ان يجانس جناس اشتقاق بين مبعوثه وباعثه ومنيعت وكلمة العيب .

وقوله :

لم يطمع الليل مني ان أرق له  
ينسى جنائياته الناسي على الناس  
حيث جانس بين كلمتي ناسي ، اسم الفاعل ، والناس جناساً تاماً .

وقوله :

فما لعين عن رياض رضا  
لا مرحا صرت ولا مشتهي  
ولا لبرح عن فواد براح  
أفقدني فقد الملاح المراح

حيث جانس بين كلمة برح بمعنى الشدة ، وبراح بمعنى مغادره المكان . كما جانس  
في البيت التالي جناساً ناقصاً بين الملاح والمراح .

(١) المصدر نفسه ١٩٠٦

(٢) المصدر نفسه ٢١٦

ومن قوله في مراعاة النظير :

في خده نخ لعطفة صدغه      والخال حبه وقلبي الطائر (١)

راعي في ذكره للفخ ان يذكر الحبة والطائر

ومن مطابقاته قوله :

يلا م لما لا يستطيع هو يعذر	ويذهب فيه القول او فيقصر
وأفعالكم تنهاء لو كان ينتهي	وما فابت الآراء لو كان يحضر
لساني بأمرى ، وهو مني ومنكم	عن البث ينهي او فبالكلم يوقر
فأما جفوني فهي بين يدكم	ضموري بها بيد و عوسري يظهر (٢)

طابق بين يذهب ويقصر وقاب ويحضر ، وينهى ويؤمر ، كما استعمل

مجموعة من الكلمات المتطابقة في الأبيات التالية بقوله :

يا طرف ، مالك ، ساهد في راقد	يا قلبه مالك راقب في زاهد
من يشتري عمري الرخيص جميعه	من وصلك الغالي بيوم واحد (٣)

هي ، ساهد وراقد ، وراقب وزاهد ، ورخيص وقال .

---

(١) المصدر نفسه ، ٤٦

(٢) المصدر نفسه ، ٣٦

(٣) المصدر نفسه ، ٣٣



ح - بالرفق من ميله الى التقليد ، نجد ان موجة التوشيح قد أعدته .  
ولا بد ان يكون قد تأثر بتلميذه ابن سناء الملك ، أحد الذين أولعوا في الموشح  
من المشرقيين ، وألف فيه " دار غلا الطرازة " الذي حاول فيه ان يحدد قواعد  
الموشح ويبين خصائصه وطرق نظمه وأوزانه (١) ، ولعل كتابه هذا أول ما ألف  
في هذا الباب فقد ذكر فيه ابن سناء الملك " ولما كانت الموشحات بهذه  
الغاية ، ولها في سوق الأدب هذه القيمة ، ولم أر احدا صنف في اصولها ما يكون  
للمتعلم مثلا يحتذى وسبيلا يقتفى ، جمعت في هذه الأوراق ما لا بد لمن  
يعانيها ويعنى بها من معرفة ولا غنى به عن تفصيله وجملته ، ليكون للمنتهي تذكرة  
وللمبتدى تبصرة " . (٢) وقد جعل قسطا من هذا الكتاب لمجموعة من الموشحات  
نظمها بنفسه ، لا بد وان يكون القاضي الفاضل قد اطلع عليها لما كان بينهما  
من صداقة وتبادل آراء في النقد .

من موشحاته :

دع اللوم يا عازلي	يا عازلي
ولا تكثرني السلام	فما انت يا عازلي
على الصب مثل الكلام	وأقصر غفدا الكلام
تلوم الى القابل	ولو قمت في كل عام
	فما انا بالقابل (٣)

(١) ابن سناء الملك ، ١٣

(٢) المصدر نفسه ، ٢٤

(٣) المصدر نفسه ، ٧٦

وهي غير تامة ، لذلك لا نستطيع ان نحكم عليها .

وموشحة أخرى يقول فيها :

مَنْ لِي بِهِ بَدْرٌ كَلَّةٌ      قَدْ حَارَ قَلْبِي كُلَّهُ  
فَهَلْ تُرَى يَتَعَزَّزُ      وَالْعَزْزُ فِي الْحَبِّ ذَلَّةٌ

...

رَضِيَتْ بِهِ <sup>وَفِيهِ</sup> مُصَابِي      فَمَا عَلَى النَّاسِ مِنِّي  
وَرَاخَتِي فِي عَذَابِي      فَلَوْ مَضَى ذَاكَ عَنِّي <sup>مَضَى</sup>  
لَا شَتَا قَلْبِي لِمَا بِي      فَهَلْ عَلِمْتُمْ بِأَنِّي  
أَسَيْتُ أَحْمَلَ مَقَلَّةً      مِنَ الْمَنَامِ مَقَلَّةً  
لَوْ زَارَهَا الطَّيْفُ أَعَزَّ      نَوْمٌ يَكُونُ مَحَلَّةً

.....

مَزَجَتْ مِنْهَا كَثُوسًا      تَجَلَّوَالِدَجِي بِشَعَاعِ  
إِذَا تَجَلَّتْ تَشْمُوسًا      وَقَامَ لِلْمَوَادِعِ  
فَالرُّوْضُ يُجَلِي عَرُوسًا      قَدْ سَوَّيْتُ <sup>سَوَّيْتُ</sup> بِشَجَاعِ  
أَشْجَارَهَا مِثْلَ كَلَّةٍ      فَالرُّوْضُ مَطْرَحٌ بِذَلَّةِ  
لَهُ مِنَ النَّهْرِ قَرُوزٌ      فَاَنْظُرَالِي صِنْعَةَ اللَّهِ (١)

• كون بعض مقطوعاته من اربعة ابيات وبعضها الاخر من خمسة .

• الا انه لم يستعمل الخرجة العامية في هذا الموشح .

تصح للقاضي بعض المحاولات في التجديد بالمعاني ، وفي السياق

العام ، شعره ذم نسق جميل ليس فيه كثير من الحديث عن ذاته الا في النادر

وله قطعة واحدة يشكو فيها من خدمة السلاطين بقوله :

ما خادمُ السلطانِ الا عرضةٌ	من نَيْضِ وابِلِهِ ولنظِ وبِالِهِ
عَجَلَتْ عَقوبَةٌ كلَّ جارحةٍ به	من قَبْلِ يومِ مَوْقِفِ لِنِكالِهِ
لجهدِ فجنائِهِ بجمودِهِ ، ورواؤُهُ	بِخمودِهِ ، ولحاظِهِ بِكَلالِهِ
والهَمُّ يطرُقُهُ لَدَى غُدواتِهِ	والهَمُّ يُصَلِّيه لَدَى آصالِهِ
يَعزى الى الترويقِ في اِكثارِهِ	وَيُوزَنُ بالتكذيبِ في اِفلالِهِ
من لي برزقٍ/ من اَرْزاقِهِ	من لي يشغلُ ليس من اشغالِهِ
ولقد شقيتُ بِخوفِهِ وحرامِهِ	فمَنى اَلدُّ بِأَمْنِهِ وحلالِهِ
مترجيا للعيشِ في اِعزازِهِ	متخونا للموتِ في اِذلالِهِ (١)

وصل بتدمره من خدمة السلطان ان وصف خادم السلطان بالآلة

لا صابته بجمود العقل ، وعدم التفكير الحر لانه يفكر بعقل السلطان ، واصابة بهجته

بالخمود لكثرة خوفه من الوقوع في الاخطاء ، ونظره بالكلال ، لكثرة ما يلحظ وجه السلطان ،

لمعرفة ما يرضيه ويغضبه ، ومنذ هذا القول مستغرب صدوره عن القاضي الفاضل  
لا فني ثنايا قصيدة مدحية .

وأخرى يشكون فيها من معاملة الأصدقاء ويقول :

فذاك من الرسوم المستقرة	وأما سوء حظي من صديقي
فكنت أصونه وأصون سره	وخيل كان مودع كل سرّ
ولم يك لي بطرق الغدر خبره	حفظت عهد ، وأضاح عهدي
ولم آمن خديعته ومكره	وكم آمنت به خدعي ومكري
ولكن ما كانني الله شره (١)	بذلت له على العلات خيري

جاء القاضي الفاضل في شعره روح عصره لئلا حد ما في اهتمامه

بالصنعة واعتماد المحسنات اللفظية والمعنوية ، أثبت أنه في النثر أقدر منه  
في الشعر ، ومع هذا فقد أعجب بعض الأدباء بشعره واستعانوا ببعض الصور  
التي قدمها للدلالة على بلاغته ومقدرته الشعرية .

يذكر العباسي في حديثه عن المخالص قوله : ومن المخالص البديعة

قول القاضي الفاضل ، من قصيدته يمدح بها الخليفة الفاطمي في ذلك العصر بمطلعها :

---

(١) المصدر نفسه ، ٢٣٠

تري لحنيني او حنين الحمام جرت فحكيت دمعى دموع الغمام

وبعد ان يورد المقدمة يقول وما احلى قوله بعده ، وينقل ما قاله الفاضل حتى  
يصل الى المخلص الذى يقول فيه :

فان نوادي بعدكم قد فطمته عن السمرا لا مدحه لا بين فاطم (١)

وارود له ابياتا اخرى اثنى على مطالعة نبيها بقوله " ولنذكر هنا  
من مطالع المتأخرين ما يزرى بمطالع البدور ، ويهجر نظمه محاسن الدر المنثور " .  
ثم يقول ، ومن ذلك قول القاضي الفاضل :

زار الصباح فكيف حالك يا دجى تم فاستدم بفرجه ارفال النجا  
وقوله ايضا يخاطب العاذل :

اخرج حديثك من سمعي فما دخلا لا ترم بالقول سهما ربما قتلا  
يقول : وما الطف ما قال بعده :

ولا يخف على قلبي حديثك لي لا والذى خلق الانسان والجبال  
يقول ايضا ، وقوله :

سمعتك والقلب لم يسمع فكم ذا تقول وكم لا يمي  
يقول وما عنده اننى بغير فؤاد ولا أضلع  
اما مع هذا الفتى قلبه نقلت نعم يا فتى ما معي (٢)

(١) العباس ج ٤ ص ٢٥٨ - ٢٥٩

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٥

ويورد له في مناسبة أخرى اشعاراً مستشهداً على سبق القاضي  
الفاضل بطرق موضوعها فيقول \* ولنذكر من أخذ المتأخرين بعضهم عن بعض ما  
يحلوني الأذواق وتتحلن به الأوراق .

من ذلك قول القاضي الفاضل في ملحق معذر

فصرتَ وصرنا وهو غيرُ مساعد	وكنتَ وكنا والزمان مساعد
ونفسنا تأبى شركها في الموارد (١)	وزاحمني في ورد ريقك شارب

ويذكر ابن تغريبدى أن علماء البديع استشهدوا بكثير من  
شعره ، وقال عنه \* وفضل القاضي الفاضل وبلاغته وفصاحته أشهر من أن يذكر \* (٢)

فإننا بالرغم من بعض هذه الآراء القليلة ، لا نستطيع أن نضعه  
في مرتبة المجيدين من الشعراء .

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٢

(٢) ابن تغريبدى ج ٦ ص ١٥٧

## خاتمة

-----

هذه هي الصورة التي تمكنت من استنتاجها وتقديمها عن القاضي

الفاضل . ولا يمكنني ان أقول انها الصورة النهائية له ، لأن ما بين يدي  
من روايات قليلة لا تكفي لاعدار حكم او اعطاء صورة لشخص عاش سبعين  
عاما واجه خلالها ظروفنا مختلفة كيف نفسه وشخصيته بطرق مختلفة بموجبها .  
لذلك اکتفي بقولي اني بذلت جهدي لابراز الصورة الاقرب الى حقيقته ،  
آملة الا اكون اجحفتة حقه .

قسمت بحثي الى اربعة موضوعات ، بدأتها بمقدمة عن العصر وأثره

في حياة القاضي الفاضل وتكوين شخصيته وتوجيهها في الاتجاه الذي سارت  
عليه ثم انتقلت للتحدث عن سيرته فبدأت بالتعريف به ، وبأسرته التي لم  
يشر اليها في أدبه معتمدة على الروايات القليلة التي أوردتها بعض المصادر  
عنه . ثم بحثت في سيرته بناء على ثلاث مراحل ، اولها في العهد الفاطمي .  
حيث كان يكافح للحصول على مقولة مرموقة في الدولة ، معتمدا على فنه التري  
والشعري بالأغلب ، وثانيها في عهد صلاح الدين عندما وصل ذروة مجده ،  
معتمدا على تدبيره وادارته وفنه ، فلعب دورا كبيرا في تاريخ البلاد من حيث  
دعاه والدائم للوحدة وجهاد الفرنج ، ووقوفه الى جانب صلاح الدين وتشجيعه  
ونصحه الدائم له ، وتيقظه في مراعاة الأحداث الداخلية من انقلابات واضطرابات

والقضاء على بعضها .

اظهر في هذه الفترة مقدرة سياسية ناقض نفسه فيها فيما بعد دون ان يشعر ، فوافق صلاح الدين على تقسيم البلاد التي طالما دعا الى توحيدها ، بين ابناءك . وشاهد جزءا من نتيجة هذا الخطأ المشترك بينه وبين صلاح الدين بعد وفاة الاخير وظهور الخلاف بين ابناءه وتقسيم مملكته وانتقال الملك الى العادل ابي بكر ، اخي صلاح الدين ، قبل وفاته بيوم ما سبب له صدمة عنيفة لم يتمكن من تحملها .

وحاولت ان ارسم شخصيته كما لمحتها من بعض كتاباته ، وما لفته المصادر من ضوء عليها اثنا الحديث عنه ، وان اتتبع أثرها الذي ظهر في مظاهر عديدة من بيئته . ثم خصصت فصلين لنشره وشعره ، بدأته بنشره لأنه القسم الأهم فقدت صورة موجزة لحال النشر في المشرق الاسلامي ومصر منذ ظهور العناصر الفنية حتى عصره ، ومدى تأثيره به في نشره الذي وصلنا من رسائل ديوانية واخوانية ، حيث اعتمد البيهقي في كتابته واستعمل عناصر خاصة جعلت المؤرخين يطلقون عليها اسم الطريقة الفاضلية . كما قارنت كتابته مع كتابة بعض معاصريه لنتمكن من اصدار حكم عليه من حيث الاسلوب . وأنهيت البحث في الحديث عن شعره حيث وجه جل اهتمامه بالمظهر الذي اضاع في سبيله قيمة شعره وعمله الشعري الى حد ما .



لائحة المصادر والمراجع

(١) المصادر (١)

١- المخطوطة

أ - الدر الفظيم من ترسل عبد الرحيم ، نسخ محيي الدين عبد الله

بن عبد الظاهر ( ت ٦٩٢ هـ ١٢٩٣ م )

مكتبة دار الكتب المصرية

مخطوط مصور رقم ٢٢٤ أدب

ب - كتاب فيه من كلام الفاضل عبد الرحيم البيساني ، تم نسخه عام ٦٨٣ هـ

نسخته محفوظة بمكتبة الجامعة الأميركية ببيروت .

ج - الفاضل من كلام الفاضل

جمع جمال الدين ابن نهاته ( ت ٧٦٨ هـ ١٣٦٦ م )

دار الكتب المصرية

مخطوط مصور رقم ٣٨٨٢ أدب . مصور عن نسخة في المتحف البريطاني

د - من ترسل القاضي الفاضل

نسخ موفق الدين ابن الديباجي

مخطوط مصور ، مكتبة بشير آغا أيوب

رقم المخطوط ١٢٦

(١) نقتصر في لائحة المصادر هذه على كتب القاضي الفاضل ومجموعات رسائله . أما المؤلفات التي تعد ناي معلومات عنه فنقد أوردناها في لائحة المراجع .

٢- العظيمة

١- البيهقي ، ديوان القاضي الفاضل لعبد الرحيم بن علي البيهقي

( ت ٥٩٦ هـ ١١٩٦ م )

تحقيق الدكتور احمد احمد بدوي

دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ، ( ١٣٨١ هـ )

٢- مجموعات رسائل القاضي الفاضل في المؤلفات التالية

١- ابرشامة ، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين لعبد الرحمن بن

اسماعيل أبي شامة .

لشهاب الدين ( ت ٦٦٥ هـ ١٢٦٢ م )

مطبعة وادي النيل بالقاهرة ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ هـ ( ١٨٧٠-١٨٧١ م )

ب- الفلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا لأبي العباس احمد

بن علي الفلقشندي

( ت ٨٢١ هـ ١٤١٨ م )

المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٣٣١ هـ ( ١٩١٢ م )

ج- المقرئ ، الخطط المقرئية المسماة بالمواعظ والاعتبار يذكر

الخطط والآثار المقرئية .

لتقي الدين احمد بن علي ( ت ٨٤٥ هـ ١٤٤٠ م )

المليحي بالقاهرة ١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ ( ١٩٠٦ - ١٩٠٨ م )

دار الطباعة المصرية ، ١٣٢٠ هـ ( ١٨٥٣ م )

## المراجع

### المراجع القديمة

- ١- ابن أبي أصيبعة ، عيون الاثبات في طبقات الاطباء لأحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة ( ت ٦١٨ هـ - ١٢٧٠ م )  
المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٢٩٩ - ١٣٠٠ هـ ( ١٨٨٢ - ١٨٨٣ م )
- ٢- ابن الاثير ، الروشي المرقوم في حل المفظوم لضياء الدين أبي الفتح ابن الاثير .  
( ت ٦٣٧ هـ ١٢٣٩ م )  
مطبعة ثمرات الفنون ، ١٢٩٨ هـ . ( ١٨٨٠ م )
- ٣- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ لعزالدين بن الاثير  
( ت ٦٣٠ هـ ١٢٣٢ م )  
القاهرة ١٣٠٣ هـ ( ١٨٨٥ م )
- ٤- ابن آياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن البركات بن احمد بن آياس  
( ت ٦٣٠ هـ - ١٥٢٣ م )  
مطبعة التقدم ، القاهرة ١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م

٥ - ابن تغريبدى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

لجمال الدين أبى المحاسن بن تغريبدى

( ت ٨٧٤ هـ ، ١٤٦٩ م )

مطبعة دار الكتب ، ١٣٥٥ هـ ، ( ١٩٣٦ م )

٦ - ابن جبير ، رحلة ابن جبير لمحمد بن احمد بن جبير

( ت ٦١٤ هـ ، ١٢١٧ م )

بريل ، ليدن ١٩٠٧ م ( ١٣٢٥ هـ )

٧ - ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون لكتاب العبر وديوان المبتدأ

والخير في أيام العرب والعجم والبربر لعبد الرحمن بن محمد ابن خلدون

المطبعة الأزهرية ١٣٤٨ هـ ( ١٩٣٠ م )

٨ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنبأ أبناء الزمان لشمس الدين ابن خلكان

( ت ٦٨١ هـ ، ١٢٨١ م )

بولاق ١٩٩١ هـ ( ١٨٨١ م )

٩ - ابن سناء الملك ، دار الطراز في عمل المشحات لأبى القاسم

هبة الله ابن سناء الملك .

( ت ٦٠٨ هـ ، ١٢١١ م )

دمشق ١٣٦٨ هـ ( ١٩٤٩ م )

١٠- ابن شداد ، الإغلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة

لعز الدين محمد ابن شداد

( ت ٦٨٤ هـ ، ١٢٨٥ م )

مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق ، ١٩٥٦ م ( ١٣٧٥ هـ )

١١- ابن الصيرفي ، قانون ديوان الرسائل ، لعلي بن منجب الصيرفي

( ت ٥٤٢ هـ ، ١١٤٧ م )

القاهرة ، مطبعة الواظ ، ١٩٥٥ م ( ١٣٤٣ هـ )

١٢- ابن كثير ، الهداية والنهاية في التاريخ لعبد الدين ابي الفدا ابن كثير

( ت ٧٧٤ هـ ، ١٣٧٢ م )

مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٤٨ هـ ( ٢١٢٦ م )

١٣- ابن ميسر ، اخبار مصر ، لمحمد بن علي بن يوسف بن ميسر

( ت ٥٥٣ هـ ، ١١٥٨ م )

مطبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩١٩ م ( ١٣٣٨ هـ )

١٤- ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ، لجمال الدين محمد بن سالم

ابن واصل .

( ت ٦٩٧ هـ ، ١٢٩٨ م )

مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٣ - ١٩٥٧ م ( ١٣٧٢ ، ١٣٧٦ هـ )

١٥- ابو شامة ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، لعبد الرحمن بن  
اسماعيل شهاب الدين  
( ت ٦٦٥ هـ ، ١٢٦٢ م )

• مطبعة وادى النيل بالقاهرة ١٢٨٧ ، ١١٨٨ هـ ( ١٨٧٠-١٨٧١ م )

١٦- ابو الفدا ، المختصر في تاريخ البشر ، لعماد الدين اسماعيل بن علي  
( ت ٧٢٢ هـ ، ١٣٣١ م )

المطبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٥ هـ ( ١٩٠٧ م )

١٧- الأزدى ، بدائع البدائة ( هامش شرح شواهد التلخيص المسنى  
معاهد التنصير ) لعلي بن ظافر الأزدى .  
( ت ٦٢٢ هـ ، ١٢٣٩ م )

المطبعة البهية ، القاهرة ١٣١٦ هـ ١٨٩٨ م

١٨- الأصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ( قسم شعراء مصر )  
لعماد الدين الأصفهاني .  
( ت ٥٩٧ هـ ، ١٢٠١ م )

نشر الدكتور احمد امين شوقي ضيف ، احسان عباس

١٩- الأصفهاني ، الفيح الفسي في الفتح القدسي لعماد الدين الأصفهاني  
( ت ٥٩٧ هـ ، ١٢٠١ م )

المطبعة الخيرية ، القاهرة ، ١٣٢٢ هـ ( ١٩٠٤ م )

- ٢٠- الثعالبي ، يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر ، لابن منصور  
عبد الملك بن محمد الثعالبي .  
( ت ٤٢٩ هـ ، ١٠٢٧ م )  
المطبعة الحنفية ، دمشق ١٣٠٣ هـ ( ١٨٨٥ م )
- ٢١- الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي  
( ت ١٠٨٩ هـ ، ١٦٦١ م )  
مكتبة القدسي ، ١٣٥٠ - ١٣٥١ هـ ( ١٩٣١ - ١٩٣٢ م )
- ٢٢- سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، لابن العظفر يوسف بن فرأفلو  
( ت ٦٥٤ هـ ، ١٢٥٦ م )  
حيدرآباد الدكن ، دائرة المعارف العثمانية
- ٢٣- السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين عبد الرهاب بن علي السبكي  
( ت ٧٧١ هـ ، ١٣٦٩ م )  
المطبعة الحسينية ، القاهرة ١٣٢٤ هـ ( ١٩٠٦ م )
- ٢٤- السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، لجلال الدين السيوطي  
( ت ٩١١ هـ ، ١٥٠٥ م )  
القاهرة ١٣٢١ هـ ( ١٩٠٣ م )

٢٥- الصفدى ، الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، لصالح الدين

بن أيك الصفدى .

المطبعة الأزهرية المصرية ، ١٣٠٥ هـ ( ١٨٨٧ م )

٢٦- الصفدى ، الواني بالرفيات ، لصالح الدين خليل بن أيك الصفدى

( ت ٧٦٤ هـ ، ١٣٦٤ م )

تحقيق هـ رينير (و) س ديدريغ

مطابع مختلفة ، ١٩٣١ - ١٩٥٣ م ( ١٣٥٠ - ١٣٧٣ هـ )

٢٧- طاش كبرى زاده ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، لأحمد بن مصطفى

( ت ٩٦٢ هـ ، ١٥٥٤ م )

حيدر آباد ، ١٣٢٨ - ١٣٥٦ هـ ( ١٩١٠ - ١٩٣٧ م )

٢٨- المعباسي ، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، لعبد الرحيم

بن عبد الرحمن العباسي .

( ت ٩٦٣ هـ ، ١٥٥٥ م )

المكتبة التجارية بالقاهرة ، ١٩٤٧ م ( ١٣٦٧ هـ )

٢٩- الغزولي ، مطالع البدور في منازل السرور ، لعلاء الدين علي ابن

ابن عبد الله البهائي الغزولي . ( ت ؟ )

مطبعة ادارة الوطن ، ١٢٩٩ هـ ( ١٨٨١ م )



- ٣٠- القرآن الكريم  
مطبعة عبد الله الملاح ، دمشق ١٣٧٩ هـ ( ١٩٦٠ م )
- ٣١- القفطي ، انباء الرواة على انباء النحاة ، لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي .  
( ت ٦٤٦ هـ ، ١٢٤٨ م )  
مطبعة دار الكتب ١٩٥٠ م ( ١٣٧٠ هـ )
- ٣٢- القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانثى ، لأبي العباس احمد بن علي القلقشندي .  
( ت ٨٢١ هـ ، ١٤١٨ م )  
المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٣٣١ هـ ( ١٩١٢ م )
- ٣٣- الكتبي ، فوات الوفيات ، لمحمد بن شاكرا احمد الكتبي .  
( ت ٧٦٤ هـ ، ١٣٦٢ م )  
مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥١ م ( ١٣٧١ هـ )
- ٣٤- المقرئ ، الخطط المقرئية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاقطار ، لتقي الدين احمد بن علي المقرئ .  
المليحي ، القاهرة ١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ ( ١٩٠٦ - ١٩٠٨ م )  
دار الطباعة المصرية ، ١٢٧٠ هـ ( ١٨٥٣ م )

٣٥- المقريزى ، السلوك لمعرفة الملوك ، لتقي الدين احمد بن علي المقريزى .

( ت ٨٤٥ هـ ، ١٤٤٠ م )

دار الفاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٤ - ١٩٤٢ م

( ١٣٥٣ ، ١٣٦١ هـ )

٣٦- النعمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، لأبي الفاهر عبد القادر

بن محمد النعمي .

( ت ٩٢٠ هـ ، ١٥١٢ م )

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٨ - ١٩٥١ م (١٣٦٨-١٣٧١ هـ)

٣٧- النويري ، نهاية الأرب في فنون العرب ، لأبي العباس احمد بن

عبد الوهاب النويري .

( ٧٧١ هـ ، ١٣٦٩ م )

دار الكتب المصرية ، الفاهرة ١٩٢٣ - ١٩٥٥ (١٣٤٢ - ١٣٧٥ هـ)

٣٨- ياقوت ، معجم الأديب ، لشهاب الدين ياقوت الرومي الحموي .

( ت ٦٢٦ هـ ، ١٢٢٩ م )

مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الفاهرة ، ١٩٣٦ - ١٩٣٨ م

( ١٣٥٥ ، ١٣٥٧ هـ )

٢٩- اليمني ، النكت العصرية في أخبار الأثر المصرية ، لأبي محمد

عمارة بن علي اليمني .

( ت ٥٦٩ هـ - ١١٧٢ م )

باريس ، لورد ١٨٩٧ م ( ١٣١٥ هـ )

### المراجع الحديثة

١- يدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، لأحمد يدوي

مكتبة النهضة ، مصر ، سنة ؟

٢- حسين ، أدب مصر الفاطمية ، لمحمد كامل حسين .

القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٠

٣- الشيال ، مجموعة الوثائق الفاطمية ، لجمال الدين الشيال

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٨ م ١٣٧٧ هـ

٤- ضيف ، الغن ومذاهبه في النشر العربي ، لشوقي ضيف

مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٦ م

٥- مبارك ، النشر الفني ، لزكي مبارك

مطبعة دار الكتب ، ١٩٣٤ م

٦- القدسي ، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، لأنيس المقدسي

مفشرات الدائرة العربية في جامعة بيروت الأمريكية سنة